الفكر التربوي عند الحكيم الترمذي

(ت : ٣٢٠ هـ)

مع إشارة خاصة إلى كتابه " المنهيات "

بقلم

د / مصطفى رجب

أستاذ أصول التربية المساعد بكلية التربية بسوهاج

وعميد المعهد العالي للدراسات الإسلامية بسلطنة عمان

١٩٩٢

"بسم الله الرحمن الرحيم"

مقدمــة :

التصوف الإسلامي من الميادين الخصبة للتربية الإسلامية • فقد قدم المتصوفـــة المسلمون إلى البشرية تراثاً زاخراً بالعطاء ،معبراً عن الشخصية الإسلامية العربيـــة تعبيراً واضحاً •

وهذا التراث إن كان قد نال حظاً لا بأس به من الاهتمام في مجال الدراســات الفلسفية ،فإنه — على مستوى الدراسات التربوية — ما يزال يعاني من الإهمال ومايزال بحاجة إلى دراسات تفصيلية تتناول العناصر المؤثرة في تكوين هذا التراث الثري سواء أكانت تلك العناصر أفراداً أم مدارس•

ويعد الحكيم الترمذي (المتوفى سنة ٣٢٠ هـ) واحداً من أبرز مفكري التصـوف الإسلامي الأوائل • وقد ترك تراثاً ضخماً يصل إلى قرابة السبعين مؤلفاً بعضه حقـــق ومعظمه ما يزال مخطوطاً •

وقد اطلع الباحث على عدد لا بأس به من مؤلفات الحكيم الترمذي فوجـــد أن لهذا الرجل فكراً تربويا يضيف إلى المكتبة التربوية العربية الكثير إذا ما أتيح له أن يرى النور • ومن هنا نبعت فكرة هذا البحث•

مشكلة البحث :

تتلخص مشكلة البحث الحالي في :

" التعرف على الآراء التربوية للحكيم الترمذي من خلال كتاباته المتاحة "وذلك من خلال إجابة التساؤلات التالية :

١ — من هو الحكيم الترمذي ؟ وما أهم العوامل التي أثرت في فكره ؟ •

٢ — ما أهم آراء الحكيم الترمذي في :

أ — العلم وتقسيم العلوم　　　ب — العلماء وأصنافهم •

جـ — التربية الأخلاقيـــة　　　د — الطبيعة الإنسانية

هـ — المعرفـــة•

٣ — ما أهم المضامين التربوية في كتاب " المنهيات " للحكيم الترمذي ؟ •

منهج البحث :

يعتمد البحث الحالي على المنهج الوصفي التحليلي حيث يقوم بتحليل آراء الحكيم الترمذي المبثوثة في مؤلفاته ، ويستنبط منها الإطار العام لفكره التربوي في ضوء العوامل التي أسهمت في تكوين شخصيته .

كما يعتمد على المنهج التاريخي في الرجوع إلى المصادر الأولية التي تناولت شخصية الحكيم الترمذي وعصره وبيئته وشيخوخته وتلاميذه .

ويستخدم الباحث منهج تحليل المحتوى في تحليل كتاب " المنهيات " للحكيم الترمذي تحليلا وصفيا لا كميا .

أولاً : من هو الحكيم الترمذي ؟

(أ) شخصيته :

هو محمد بن علي بن الحسن (أو الحسين على خلاف بين المؤرخين) بن بشير (أو بشر) بن هارون ، كنيته : أبو عبد الله ، أما من حيث اللقب فقد لقب بالزاهد والحافظ والصوفي والشيخ والمحدث والمؤذن والعالم العلامة والإمام الحكيم . وأكثر ألقابه شيوعاً هو لقب : الحكيم . وهذا اللقب يطلق عادة — كما هو شائع في التراث العربي — على الشخص الذي تعاطى قدراً من الفلسفة أو الطب .

ولم تذكر كتب التراجم التي أرخت للحكيم الترمذي عام مولده وإن كان بعض الباحثين قد حاول استنتاج ذلك تقديراً (٣—٢٠) (*) فتوصل إلى أنه ربما كان قد ولد في نحو عام ٢٠٥ هـ . وقد اختلفوا كذلك في عام وفاته فقيل توفي عام ٢٨٥هـ (٢٣—٩٥) وقيل عام ٣٢٠ هـ وهو الأرجح والأشهر .

(ب) مكانته العلمية :

لم يحظ الحكيم الترمذي باهتمام المؤرخين بالقدر الذي يستحقه ، ومع ذلك فإن الشذرات القليلة التي وردت عنه في كتب التراث تبرز أهمية الرجل ومكانته العلمية بين المؤلفين المسلمين الأوائل .

(*) الرقم الأول هو رقم المرجع المسلسل في قائمة المراجع ، والرقم الثاني هو رقم الصفحة داخل المرجع .

فقد قال عنه السلمي (٧ـ ٢١٧) " وهو من كبار مشايخ خراسان وله التصانيف المشهورة ، كتب الحديث ورواه ، وقد روى كثير من أقواله " .

ونقل ابن حجر العسقلاني (٩ـ ٣٠٨) في لسان الميزان ما قاله عنه المؤرخ كمال الدين بن النديم في كتابه " تاريخ حلب " وما قاله عنه ابن النجار في " ذيل تاريخ بغداد " من أنه " كان إماماً من أئمة المسلمين له المصنفات الكبار في أصول الدين ومعاني الحديث ، وقد لقي الأئمة الكبار وأخذ عنهم ، وفي شيوخه كثرة " ثم أورد ابن حجر بعض الاتهامات التي وجهها ابن النديم للحكيم الترمذي ووصفه بالمبالغة فيها وقد وصفه الذهبي (٥ـ ١٩٧) بالزاهد الحافظ المؤذن صاحب التصانيف ووصفه كذلك السبكي (٦ـ ٢٠) وابن الجوزي (١ـ ١٤١) وقال الزركلي (١٤ـ ١٥٦) عنه إنه باحث صوفي عالم بالحديث وأصول الدين .

وينقل صاحب مفتاح السعادة (٨ـ ١٧١) عن ابن تيميه ثناءه على الحكيم الترمذي وعلى كثير من مؤلفاته برغم مخالفته إياه في بعض المسائل .

ج ـ مؤلفاته

قام محمد إبراهيم الجيوشي (١٩ـ ١٥، ١٦) باحصاء ماتم العثور عليه من مؤلفات الحكيم الترمذي فأحصى ما يزيد على ستين مؤلفاً (٦٨) مؤلفا ومائتي رسالة تختلف أحجامها طولاً وقصرا . وهذه المؤلفات الضخمة مبثوثة في مختلف مكتبات العالم وأغلبها لم يقدر له أن يطبع حتى الآن .

ثم عقب على هذا الإحصاء بقوله :

" والانطباع الذي يخرج به الباحث من استعراض هذه المجموعات هو أن الحكيم الترمذي أنشأ كثيرا من الكتب والرسائل إيضاحاً لنقاط طلب إليه ايضاحها ، أو إجابة لأسئله وجهت إليه من معاصريه طلابا كانوا أو شيوخا أو مريدين وأتباعا " .

ولو أردنا أن نقسم هذه المؤلفات حسب موضوعاتها لوجدناها تندرج تحت هذه الفروع :

التفسير ـ الحديث ـ الفقه ـ فلسفة التشريع ـ علم الكلام ـ تاريخ الصوفية ـ مبادئ التصوف ومناهجه " .

ـ ومن أهم هذه الكتب والرسائل في المجال التربوي :

١ ـ رسالة (أنواع العلم) وهي ما تزال مخطوطة ويناقش فيها فكرة العلم والمعرفة وألوان العلوم السائدة في عصره وأصناف العلماء وطرق تحصيل كل من علم الظاهر والباطن •

٢ ـ رسالة (بيان العلم) كتبها ردا على قوم اتهموه برفض العلم وتضييق مفهومه وفيها يركز على ربط بين مفهومي (العلم) و (الفقه) فيقسم العلم إلى :

أ ـ الحلال والحرام (علم الظاهر)

ب ـ علم أحكام الآخرة (علم الباطن)

جـ ـ علم أحكام الله تعالى في خلقه في الدارين .

ثم يذكر أنواع كل قسم وفائدته • وهذه الرسالة ما تزال محفوظة أيضا •

٣ ـ علم الأولياء وقد حققه ونشره سامي نصر لطيف (٣ـ) وفيه حديث عن تقسيم العلماء وتقسيم العلوم ، وحديث عن مجاهدة النفس وأساليب تربيتها ورياضتها • وحديث عن فضل العلم وحقيقته • ثم الفرق بين العلم والحكمة • • ومعنى العلم الكشفي القلبي وعلم التقوى •

٤ ـ المنهيات وحققه محمد عثمان الخشت (٤ـ١٢) وقد جمع فيه الأحاديث النبوية التي وصلت إليه وتنهى عن أمور معينة تخل بالسلوك اللائق حيث يذكر سلسلة الحديث ثم نصه ثم يعقب عليه بالشرح والتحليل والتعليق واستنتاج علة النهي • وهو كتاب فريد في بابه •

ثانياً : العوامل المؤثرة في فكره :

أ ـ ظروف عصره

يمثل القرن الثالث الهجري الذي عاش فيه الترمذي عصر النضج والاكتمال الثقافي والحضاري للدولة الإسلامية ، وكانت المدارس الفكرية الدينية والفلسفية والأدبية تملأ جنبات العالم الإسلامي وتقدم نتيجة بحوثها ثمرة شهية لطلاب الثقافة في حواضر الإسلام ومراكزه الثقافية • وكانت رحلات العلماء وطلاب المعرفة على أشدها من مشرق الأرض إلى مغربها ، وقد شهد ذلك القرن عمالقة الفكر الإسلامي وشيوخه في كل جوانب المعرفة الإنسانية وكانت الحواضر الإسلامية تموج بحلقات العلم والدرس • وتتخذ من المساجد مركزا لنشاطها الثقافي والديني •

وكان إقليم خراسان الذى تقع فيه مدينة ترمذ ، مسرحا لكثير من المذاهب والمعتقدات التى يباين بعضها بعضا ويعيش بعضها إلى جانب بعض وينحو كل منها منحى خاصا من الغلو والتعصب ، ولذا كان الجو العام الذى يسود هذا الاقليم مشحونا بالتعصب والتباين والاضطراب .

وكان سكان هذا الإقليم أخلاطا من أجناس مختلفة من الترك والهند والفرس وكان لاختلاف هذه الأجناس وتلاقيها فى هذا الجزء من العالم أثره العميق الجذور فى توزيع أفكارهم وأحاسيسهم واتجاهاتهم ، وقد بدا ذلك بوضوح فى الاتجاهات الفكرية والعقائدية والحضارية التى توزعت المنطقة وأثرت فيها إلى ما بعد الإسلام . وكان موقع ترمذ التجارى والحربى يجعل منها نقطة اتصال مباشر بين هذه الأجناس والأفكار والثقافات والعقائد المختلفة (٩ – ١٠ ، ١١) .

ومن بين التيارات الفكرية التى سادت إقليم خراسان – بل وسائر الدولة الإسلامية – فى القرن الثالث الهجرى ، وتركت بصماتها على فكر الحكيم الترمذى : التصوف ، فقد شهدت خراسان نشوء الحركات الصوفية وشيوخها كالملامتية وأصحاب الفتوة أتباع شاه الكرمانى (ت: ٣١٠ هـ) والسهلية التى تنسب الى سهل التسترى ، (ت ٢٨٣ هـ) والكرامية أتباع محمد بن كرام (ت: ٢٢٥ هـ) .

وقد كان للحكيم الترمذى إلى جانب تحصيله النظرى لعلوم الصوفية تجربته الخاصة فى الخلوة ورياضة النفس حتى كان يمتنع عن شرب الماء فى بعض الأحيان ويخرج إلى الصحراء بعيداً عن الناس فيقضى بعض الوقت فى التأمل فى ملكوت السموات والأرض مما ترك أبلغ الأثر فى شخصيته ، وتوجهه نحو التصوف ومناقشاته مع متصوفة عصره .

وإلى جانب التصوف كان هناك تيار الشيعة الذين ازداد انتشارهم فى الدولة الإسلامية فى القرن الثالث وبدأوا ينقسمون على أنفسهم ويظهر لهم فكر سياسى ومذهبى خاص بهم . وتميزت من بين فرق الشيعة فرقة الإمامية الذين يرون أن الإمامة باقية فى آل البيت وأن آل البيت معصومون من الخطأ ويأخذون ذلك من ظاهر قوله تعالى :
" إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا " (الأحزاب ٣٣)
وقد اتهم الحكيم الترمذى بأن له صلة بالشيعة الإمامية نظراً لوجود بعض أوجه الشبه بين فكرة الإمامه عندهم ونظرية الولاية التى تعد من أهم افكار الحكيم الترمذى ، ولكن باحثاً معاصراً دحض هذا الاتهام واثبت عدم وجود صلة بين الحكيم الترمذى والشيعة

من الناحية السياسية والمذهبية (٣–٢٥) .

والتيار الثالث الذى ساد خراسان فى عصر الحكيم وأثر فى فكره ، هو تيار المحدثين . فكما اشرنا سابقا كان من هذا الإقليم رجال الصحاح الستة وغيرهم ويبدو أن الاهتمام بعلم الحديث هو الذى سيطر على الحكم الترمذى منذ بدايته فقد سمع الحديث بخراسان والعراق ، ورواه عن أبيه وعن كثير من أساتذته ، وبخاصة قتيبة ابن سعيد (٢٤١هـ) وقد انعكس هذا على فكره فألف كتابه " المنهيات " معتمداً فيه على توثيق الأحاديث النبوية التى تتعلق بالنهى عن الوقوع فى الذنوب والهفوات والمكروهات فهو كتاب فى الأخلاق الدينية والفضائل السلوكية والآداب الإجتماعية التى ينبغى التحلى بها من خلال معرفة ما ينبغى اجتنابه من رذائل .

ب – رحلاته وبيئته :

تنتمى مدينة ترمذ (وهى الآن قرية متواضعة بالاتحاد السوفيتى تقع قرب حدود أفغانستان) إلى إقليم خراسان . وقد تم فتحها عام ٧٠ هـ ، وأصبحت جزءاً من الدولة الإسلامية .

وسكان إقليم خراسان فى القرن الثالث الهجرى كانوا خليطاً من أجناس مختلفة اجتمعوا فى هذه البلاد التى تتميز – لوقوعها على ضفة نهر جيجون – بكونها ملتقى المسافرين من أقطار مختلفة ، وتشعبت عقائدهم ومذاهبهم قبل دخول الإسلام . وانعكس هذا التشعب على سكان هذا الاقليم بعد دخولهم الاسلام فكثرت بينهم الاتجاهات الفكرية واختلفت نوازعهم العقلية . ولكن كان من أبرز الاتجاهات السائدة ظهور فطاحل علماء الحديث .

فإلى هذه المنطقة ينتمى أصحاب الكتب الصحاح الستة : البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى والترمذى وابن ماجة . وغيرهم من رجال الحديث المعروفين .

وفى مدينة " بلّخ " التى تنتمى إلى هذا الإقليم نفسه ازدهر الاتجاه الصوفى حيث ظهر من أوائل الصوفية إبراهيم بن أدهم وحاتم الأصم وغيرهما كما عرفت الاتجاهات الأخرى كالشيعة والمعتزلة طريقها إلى هذا الإقليم وأخذت لها موقعاً متميزا بين تلك المدارس والاتجاهات المتباينة .

فى هذا الجو الخصب نشأ الحكيم الترمذى فى بيت علم وأدب ، فقد كان أبوه

أحد علماء الفقه ورواة الحديث كما يبدو من حديثه عنه ،وقد غرس فيه أبوه حب العلم منذ وقت مبكر حتى أصبح العكوف على الدرس عادة سلوكية لديه منذ صباه فى نحو الثامنة. ويبدو من حديثه عن أبيه فى كتبه أن أباه قد عاش إلى أن بلغ الحكيم سن الشباب وحصل كثيراً من مسائل العلم (١٩ ـ ١٦) .

وعندما بلغ الحكيم السابعة والعشرين من عمره سافر إلى مكة لأداء فريضة الحج وفى طريقه مر على العراق ليأخذ الحديث عن علمائه وزار كلاً من الكوفة والبصرة وبقى هناك إلى شهر رجب ،ثم شد رحاله إلى مكة ،فى منتصف الشهر التالى وظل مجاوراً للبيت الحرام حتى وقت الحج ،ويبدو أن هذه الرحلة كانت نقطة التحول الكبرى فى حياته واتجاهه نحو التصوف فقد قضى هذه الفترة فى مكة معتكفاً فى البيت الحرام آخذاً نفسه بالتربية والتهذيب والرياضة وحفظ القرآن مما انعكس فيما بعد على أفكاره الصوفية بوضوح .

ثم رحل بعد ذلك إلى نيسابور عام ٢٨٥ هـ ودرس فيها الحديث حتى أخذ عنه الكثيرون ثم كانت آخر رحلاته تلك الرحلة التى قام بها إلى "بلْخ" بعد أن هاج عليه أهل ترمذ بسبب تأليفه لكتاب "ختم الأولياء" وكتاب "علل الشريعة" فأستقبله أهل "بلْخ" استقبالاً حسنا لموافقته لهم فى المذهب.

جـ ـ أساتذته :

تتلمذ الحكيم الترمذى بالدرجة الأولى على والده على بن الحسن الترمذى كما روى الحديث عن عدد كبير من المحدثين يزيد عددهم على المائة من أشهرهم :

- الحافظ أبو اسحق الطبرى البغدادى اختلف فى تاريخ وفاته بين ٢٤٤ و ٢٤٧ و ٢٤٩ هـ قال عنه صاحب تاريخ بغداد "كان ثبتا صدوقا" (١٩ ـ ٤٥) .
- على بن حجر بن أوس السعدى المروزى ،روى عنه مسلم ،وكان رحالة نزل بغداد ثم تحول إلى مرو ،قال عنه النسائى : ثقة مأمون حافظ وله كتاب : "أحكام القرآن" توفى سنة ٢٤٤ هـ. (١٠ جـ٧ ـ ٢٥٩) .
- عيسى بن أحمد العسقلانى ،ثقة صدوق ،ت ٢٦٨ هـ (١٠ جـ٨ ـ ١٨٤) .

أما عن مشايخ الصوفية فمن الصعب القطع بأن الحكيم الترمذى تتلمذ على أحد منهم إذ أنه لم يشر إلى ذلك فى كتبه العديدة. ويرجح الجيوشى (١٩ ـ ٣٧) أن يكون

لقاؤه بهم لقاء الأقران والنظراء لأنه لو كان قد تتلمذ على أحد منهم لاخبرنا بذلك فى مجال عرضه لأطوار تقدمه الروحى وبحثه عمن يرشده إلى الطريق . ولعل عدم وجود شيخ فى التصوف للحكيم الترمذى يلقى ضوءا على اتجاهه الذى يعبر عنه فى رده على رسالة بعث بها إليه بعض إخوانه من إقليم الرى فرد الحكيم عليه ينصحه بألا يطلب الخالق بالمخلوق ، وهذا يخالف تقاليد الصوفية التى تؤكد ضرورة وجود شيخ للمريد فى بداية سلوكه الطريق . فهذا يدل على أن الحكيم اعتمد على تجربته الروحية الخاصة .

وعلى أية حال فمن المؤكد أنه التقى بثلاثة من كبار شيوخ الصوفية فى عصره وهم :

- يحيى بن الجلاء
- أبو تراب النخشبى
- أحمد بن خضرويه

وفيما عدا ذلك لا تروى لنا المصادر شيئاً عن أساتذته وإن كانت دائماً تصفهم بالكثرة . ومما رواه عن رحلته إلى الحج وتوقفه فى العراق وطلبه العلم فى البصرة والكوفة وقتا قصيراً نستطيع أن نتوقع أنه تتلمذ هناك على معاصريه من علماء الفقه واللغة وهما العلمان اللذان ازدهر تدريسهما فى العراق وبخاصة فى الكوفة والبصرة فى القرن الثالث الهجرى .

ثالثاً : الفكر التربوى عند الحكيم الترمذى :

١ — العلم وتقسيم العلوم :

يقول الحكيم الترمذى " أول عبادة الرب العلم ، فإذا علمت عرفت ، وإذا عرفت عبدت ، وجميع العلم فى الحروف ولا يظهر إلا بالحروف ، فالناطق يظهر الحروف باللسان ولذلك سمى منطقا لأنه ينطق المعانى بتلك الحروف ، والصامت يظهره بالتخطيط ولذلك سمى كتابا ، والكتب بالنظم أى ينظم الحروف بعضها يتلو بعضا .

فالعلم علامة المعانى وفى المعانى نفس الأشياء المقصودة بالاظهار ، والعلم يدل على المعانى الخفية ، والمعانى على ضربين : ظاهر وباطن ، فالناس فى هذا العلم فى كل لغة على ضربين ، فمنهم من علم الكلمة الدالة على معناها الظاهر ، وخفى عليه معناها الباطن ، لأنه خفى عليه علم الحروف ، ومنهم من جاز علمه إلى تأليف الحروف التى صارت كلمة ، فعلم ما فى كل حرف وما فى تأليفه فهذا عالم العلماء وهو الذى بطن

الباطن ،فهو عبد من خاصة أولياء الله اختصه برحمته وأطلعه على أسراره(٢٢ـ١١٢) .

ويرى الحكيم الترمذى أن هناك نوعين من العلم : العلم الظاهر ،والعلم الباطن ويسمى العلم الأول العلم بالمجان ويسمى الثانى العلم بالثمن . والعلم الظاهر هو قوام الشريعة ،وتأديب النفس واصلاحها ومنعها عن الجهل ومعرفة حدود وأحكام الدين ،وهو ما يطلق عليه علم الشريعة ويسميه أحيانا علم الحلال والحرام .

أما العلم الباطن ،فهو علم القلب ،وهو العلم النافع وهو علم الحقيقة ،ويستند الحكيم الترمذى فى تقسيم العلم إلى ظاهر وباطن إلى ما روى عن النبى — صلى الله عليه وسلم — العلم علمان : علم باللسان ،فذلك حجة الله تعالى على خلقه ،وعلم بالقلب فذلك العلم النافع(١٩ـ٢٨٧) .

ولا يستغنى باطن العلم عن ظاهره ،ولا ظاهره عن باطنه ،لأن الظاهر بيان الشريعة وهو حجة الله تعالى على خلقه ،والباطن بيان الحقيقة ،فعمارة القلب والنفس بهما جميعا ،وصلاح ظاهر الدين وقوامه بعلم الشريعة وصلاح باطنه وقوامه بعلم الحقيقة . ولهذا لا يكون العالم عالماً بالباطن حقاً إلا إذا كان عالما بالظاهر لأنه الطريق إليه ،ومن هذا يبدو قوة ارتباط كل من العلمين بالآخر .

ويبدو من هذا التفصيل السابق رأى الحكيم الترمذى بوضوح فى ضرورة تحصيل العلم الظاهر والإلمام به إلماماً كاملا ،وكذلك يبدو من كتابات أخرى فى أماكن مختلفة من كتبه أنه يرى أن باطن العلم لا يعارض ظاهره ،ومن يدعى باطنا من العلم يخالف ظاهر الشريعة فدعواه رد ودينه متهم وعلمه وساوس من الشيطان .

وقد أورد الحكيم الترمذى فى مواضع أخرى من كتبه تقسيماً ثلاثياً للعلم . فيقول أن العلم عندنا ثلاثة أنواع . نوع منها الحلال والحرام ،ونوع ثان الحكمة ونوع ثالث علم المعرفة ،وما وراء ذلك فهو محجوب عن الخلق .

فهو يقول فى كتابه " علم الأولياء " :

" فالعلم ثلاثة أنواع : علم بالله ،وعلم بتدبير الله وربوبيته ،وعلم بأمر الله تعالى .. وإنما صيرناه ثلاثة أنواع إذا أردنا أن يتميز عند من لا يعقل علم الله تعالى من تدبيره ،لأن علم التدبير للعباد هو داخل فى باب العبودة . وعلم الله هو الثناء الذى يظهر على الألسن من بساتين القلوب ،وأن الله تعالى خلق كل شئ وجعل فيه الحياة ،فأعطاه العلم به فأفضاهم إلى القنوت ،والقنوت هو الركود بين يديه ،كل فى

مقامه الذى أقامه فيه ، ثم جعلهم أهل صفوته ، وخاص أهل قربته ، ليكون متقلبه فى كل أمر إلى الله تعالى ، ولله تعالى " (٣ــ٨١) .

وظاهر أن هذا النص مضطرب وقد اعتمد الترمذى فيه على كلمة رواها عن سيدنا عيسى بن مرين عليه السلام وهى قوله :

" العلماء ثلاثة : عالم بالله ليس بعالم بأمر الله ، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله ، وعالم بالله عالم بأمر الله " (المصدر نفسه والصفحة نفسها) .

ولعل كلمة المسيح ــ عليه السلام ــ أوضح من كلمة الترمذى لأن مثل هذا التقسيم بالقياس إلى الأشخاص (أعنى العلماء) أيسر منه وأوضح بالقياس إلى ذات العلم وهو مفهوم مجرد .

غير أن الترمذى يعود فى موضع آخر إلى التقسيم الثلاثى للعلم وذلك فى رسالته فى : " أنواع العلوم " فيقول :

" فالعلم عندنا ثلاثة أنواع : نوع منها الحلال والحرام ، ونوع ثان : الحكمة ، ونوع ثالث : المعرفة " .

ومن الواضح أن الترمذى يتحدث دائماً عن العلوم الدينية فهو لم يتطرق إلى علوم الدنيا التى تناولها غيره من مفكرى التربية الإسلامية . ففى رسالته " الأكياس والمغترون " يقول أيضا :

" والعلم ثلاثة أنواع : نوع منه علم الله وعلم أسمائه ، والنوع الثانى : علم التدبير ، والثالث علم أمره ونهيه " (٣ــ٨٣) .

ويبدو أن ما يقصده الترمذى بعلم أوامر الله ونواهيه أو علم الحلال والحرام هو علم الفقه بما يشمله من أحكام العبادات والمعاملات لأنها مناط التكليف ومجال الحل والحرمة . وهذا العلم (الفقه) عام تجب معرفته على كل مسلم ، أما العلمان الآخران وهما علم تدبير الله ، والعلم بالله من حيث الأسماء والصفات فمن العلوم الخاصة بالأولياء والمتصوفة ومن سار على نهجهم . وقد حاول بعض الباحثين (٣ــ٨١) التوفيق بين التقسيم الثنائى والتقسيم الثلاثى للعلم عند الحكيم الترمذى على أساس أن التقسيم الثنائى وهو أن العلم علمان :

- علم الظاهر .
- علم الباطن .

يستوعب التقسيم الثلاثى من حيث أن علم الظاهر يشمل الحلال والحرام ،لأنـــه يتناول الشريعة الإسلامية من الخارج ،أما علم الباطن فيشمل •الحكمة بشقيها :

ـ الحكمة العليا وهى العلم بالله (أسماء وصفات) •

ـ الحكمة الأدنى وهى العلم بأمر الله وصنعته وتدبيره •

والدليل على ذلك أن الترمذى فى موضع آخر يقول (٣ ـ ٨٤) :

" والله فضل العلماء بهذا العلم (أى العلم الذى لديهم) فمن رعاه حـــق رعايته أتاه ظاهر العلم وباطنه ،فظاهره على اللسان وهو حجة الله على خلقه ،وباطنــه فى القلوب فذلك العلم النافــع " •

بين العلم والحكمة :

أحياناً يستخدم الحكيم الترمذى كلمة " الحكمة " للدلالة على ما يسميـــه بـــ " العلم الباطن " فى تقسيمه الثنائى • ويظهر ذلك من قوله :

" إن الحكمة هى باطن العلم " وفى قوله :

" فإن طهرت مكانه (يقصد القلب) تطهير الظاهر ،أو أودعته على الظاهر لم يـــدر عليك إلا ما أودعته ،وذلك علم بغير مدد وإن ظهرت مكانه تطهير الباطن در عليك علم الظاهر مع المدد وهو العلم الباطن ،وأسمه الحكمة ،وذلك المدد من الله " (١٩ ـ ٧٥)

وكما قسم الترمذى العلم إلى ثلاثـة أقسام ،فهو يقسم الحكمة كذلك إلى ثلاثة أقســـام هى :

" حكمة تتولد من كثرة التجارب ،وحكمة تتولد من صفاء المعاملة ،وهذه تدلـــك على الآخرة ،وحكمة تتولد من القرب والمشاهدة وهذه تدلك على التقرب ووجود الصفات بقرب الحق ،وهى أعلاها وأجلها ،والتى تتولد من التجربة تدلك على مصالح الدنيـــا وهى أدناها والثانية (صفاء المعاملة) تدلك على الآخـــرة " •

والواضح أن هنا تطابقاً بين تقسيمه للعلم وتقسيمه للحكمة ،إذ جعل مـــن الحكمة ما يتصل بالدنيا وما يتصل بالآخرة وما يتصل بالله عز وجل • أى أن التقسيـــم ثنائى (ظاهر ـ باطن) وفى الوقت نفسه ثلاثى (يتصل بالدنيا ـ يتصـــل بالآخرة ـ يتصل بالله) •

ولكن مع هذا التطابق نلحظ أن الحكيم الترمذى فرق بين العلم والحكمة من حيث

مصادر كل منهما ،فالعلم يدرك بالاكتساب والتحصيل والتعلم أما الحكمة فلا تدرك بالاكتساب لأنها منة من الله للعبد ،وهذه المنة لايمكن تحصيلها بالتعلم وإنما تنال بالتطهر والصفاء الداخلي ،وصدق التوجه إلى الله . يظهر ذلك من قوله :

" يترك(أي العبد المخلص) مشيئاته في الأمور كلها لمشيئة الله عز وجل ، ويراقب ماذا يبدو له من مشيئة الله عز وجل في الأمور كلها فيتلقاها بالتعظيم فيتقبلها ، فهذا عبد قد جمع التقوى والزهد والعبودة . وحق إيمانه وإسلامه ،فاستحق البر واللطف من مولاه . فمن عليه بالحكمة وأوصله بذلك النور إلى معدن التدبير يوم المقادير " (١٩_٢٨٩) .

والحكمة(أو علم الباطن) التي هي منة من الله للعبد تتأتى للعبد بعد إخلاصه لله وتطهيره لباطنه ،وتكون نتيجتها اطلاع العبد على أسرار مخلوقات الله وتدبيره كما حدث مع العبد الصالح (الخضر) في قصته مع موسى عليه السلام . فقد قال تعالى في حقه(وعلمناه من لدنا علما) الكهف : ٦٥ ،فهذا العلم اللدني طلبه موسى عليه السلام من الخضر فقال له(هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا)الكهف: ٦٦ فكان رد الخضر عليه(قال إنك لن تستطيع معي صبرا) الكهف: ٦٧. قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية :

" ياموسى إني على علم من علم الله علمنيه لاتعلمه أنت ،وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه "(٢_٩١) .

فغاية الحكمة عند الحكيم الترمذي هي السير على طريق رضا الله تعالى وتحقيق مراده من خلق الإنسان . وخروج الإنسان عن إرادته كلية لكي يصبح عبداً ربانيا . بينما غاية العلم قد تكون مجرد الافتاء وتعريف الناس بالحرام والحلال (وذلك في المستوى الظاهر من العلم) .

من العرض السابق نستطيع أن نستنتج الحقائق التالية :

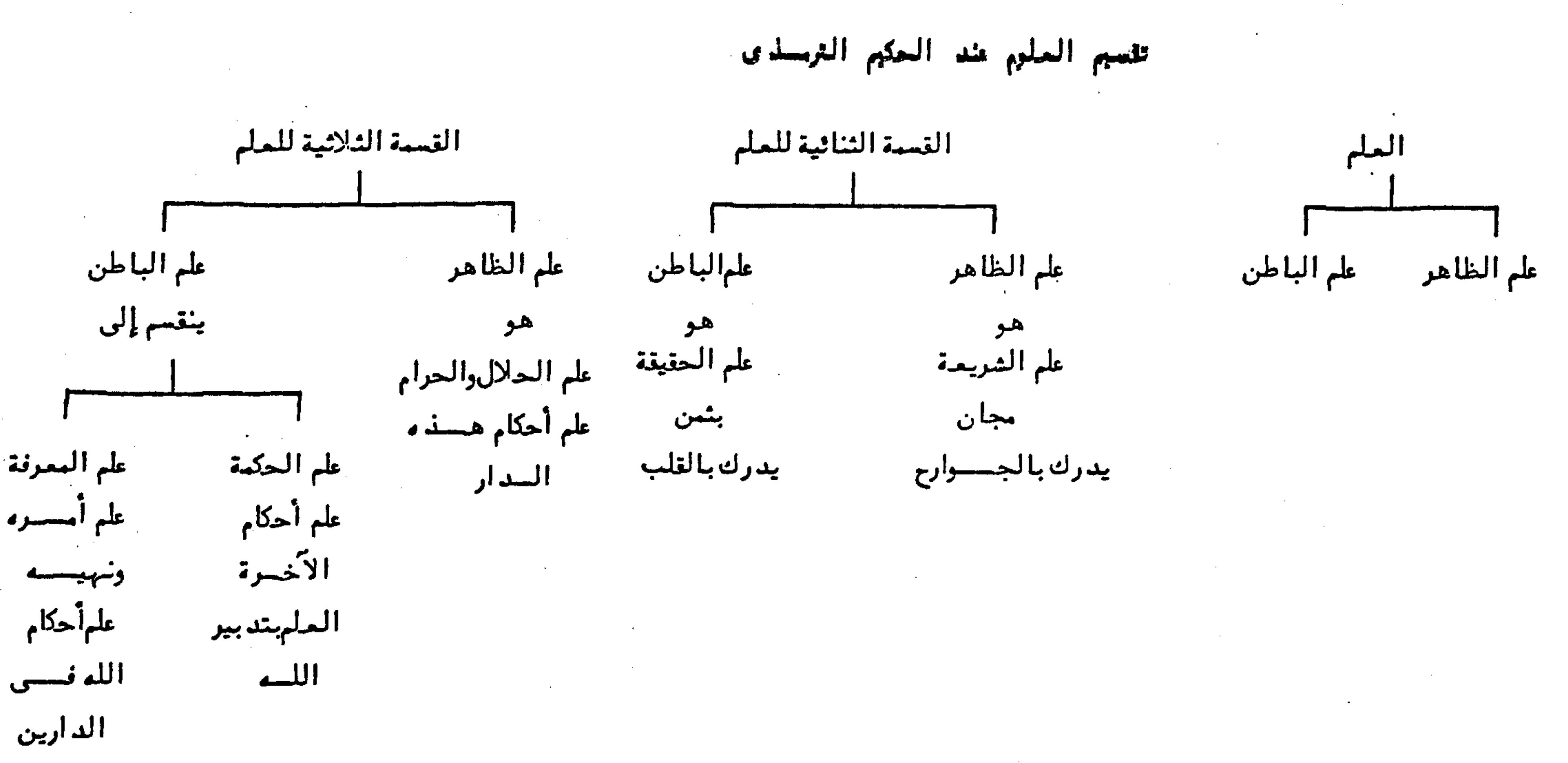
١ ــ أن الحكيم الترمذي في تقسيمه للعلوم لم يتناول علوم الدنيا بل اقتصر في تقسيمه للعلوم على العلوم الدينية . ومع ذلك فقد كان تقسيمه يتسم بالعمومية .

٢ ــ أنه يرى أن الهدف الأساسي للعلم هو وصل الإنسان بخالقه وهذا يتمشى مع فلسفته الصوفية .

٣ ـ أنه طابق بين العلم والحكمة من حيث التقسيم ،ولكنه فرق بينهما من حيث المصدر ،والغاية.

٤ ـ أنه قسم العلم قسمه ثنائية وقسمه ثلاثية على نحو ما يوضحه الرسم التوضيحي التالى :

تقسيم العلوم عند الحكيم الترمذي



ب - العلماء وأصنافهم

يرى الحكيم الترمذى أن العلماء ثلاثة أصناف:

الصنف الأول :

العلماء بالحلال والحرام يسلكون بك فى طريق الشريعة إلى الجنة وبمسائلتهم تعرف الحلال والحرام . وهم على خطر عظيم ، ويندرج تحت هذا الصنف من العلماء طائفتان : طائفة مؤدون للأخبار ليس عندهم وراء هذا شئ من قوة الاستنباط ، وهؤلاء لا يجوز لهم العمل بشئ من العلم دون التفقه فيه ولا الفتيا للخلق ، وهؤلاء ليسوا فى الحقيقة علماء ، وإن كانت مظاهرهم توهم الناس أنهم علماء فهم حملة نقالون إلى من بعدهم من القرون .

- الطائفة الأخرى : تفقهوا فى الدين وتدبروه وطلبوا معانيه وتعرفوا ناسخه من منسوخه حتى قووا على الاستنباط ، وقياس الفروع على الأصول ، وهؤلاء سبق لهم الإذن من التنزيل ومن سنة الرسول صلى الله عليه وسلم فى أن يجتهدوا برأيهم للحكم بين الناس وافتائهم فى مسائل الحرام والحلال . فأما من التنزيل فقوله تعالى : " يحكم به ذوا عدل منكم " وأما من السنة فقوله صلى الله عليه وسلم " إن الحاكم إذا اجتهد فأصاب فله عشر حسنات ، وإذا أخطأ فلحسنة واحدة " .

ومن هنا جاء اختلاف الصحابة والتابعين فى الأحكام فى الزواج والدماء والأموال وغير ذلك .

والحكيم الترمذى يرى أن الطائفتين اللتين تمثلان الصنف الأول من العلماء على خطر عظيم لأنهما يستمدان علمهما من مصادر غير يقينيه فالطائفة الأولى تأخذ علمها من علم السابقين مع ما قد يشوبه من تزوير أو خطأ فى النقل ، أو دس وتحريف . والطائفة الثانية تجتهد برأيها مع ما فى العقل الإنسانى من قصور وضعف يجعلانه عرضة للخطأ والزلل .

يقول الحكيم الترمذى :

" فابتلى هؤلاء (يقصد الطائفة الثانية) باجتهاد الرأى ، وابتلى هؤلاء (يقصد الطائفة الأولى) بالأداء ، واحتاج أهل الأداء إلى الصدق والتحرى فيه ، والتثبت للرواة

النقلة ،وتجنب استبدال الألفاظ التي تغير المعنى ،واحتاج أهل الاستنباط والاجتهاد في الرأى إلى قلب ذكى مشحون بنور الله ،ونفس صافية من كدوره الأخلاق ،عفيفة من أدناس شهوات الدنيا حتى يدرك الحق ،ويسلم من الدخول بين يدى الله وبين عباده ، لأن من يصدر عن فتياه انما يعبد ربه بما يفتيه . وهؤلاء هم المعنيون بقول النبى عليه السلام فى حديثه لأبى جحيفه " سائل العلماء " . وهم الذين يسلكون بك فى طريق الشريعة إلى الجنة . (١٩ - ٢٩٢) .

الصنف الثانى :

هم العلماء بالله ،وهم الحكماء وهم أهل الفهم عن الله تعالى ،لأنهم فطنوا إلى أن الله تعالى خلق الدنيا دار ممر والآخرة دار مقر ،فأبصروا ذلك بالنور فى قلوبهم . فزهدوا فى الدنيا بالقلوب وتجافوا عنها بالأبدان ورغبوا فى الآخرة بالقلوب ،وأتعبوا الأبدان فى طلبها ،ونظروا إلى الأحوال فرأوا حسن تدبير الله . . وهم الذين يسلكون بك على طريق الإخلاص فى الشريعة إلى منازل القربة ،وبمخاللتهم (أى بمصاحبتهم) يفضون إليك بالحكمة حتى تخلص فى العبودية فتكون عبدا مقربا (١٩ - ٢٩٣) .

الصنف الثالث :

هم العلماء بالله والعلماء بأمر الله ،وهم الذين قال فيهم النبى صلى الله عليه وسلم : جالس الكبراء ،وهم الذين جمعوا هذه العلوم كلها ،فعلموا الحلال والحرام ، وفهموا تدبيره عنه فى تحليله الحلال وتحريمه الحرام ،واطلعوا على علم الملكوت واستشعرت قلوبهم عظمة الله فهابوه وأجلوه ،وولت قلوبهم إليه وحنت إلى لقائه ،فبعلم اليقين عبدوه . كما قال الله تعالى " كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم " أى بقلوبكم " ثم لترونها عين اليقين " غداً فى الآخرة فعلم اليقين يريك الأشياء تصويرا ، وعين اليقين تريك الأشياء جهة (أى فى مكانها) وهم (أى هذا الصنف من العلماء) هم الكبراء الذين تكبروا بما منّ الله عليهم من كبريائه وعظمته ،وهم الذين إذا رؤوا ذكر الله برؤيتهم - كما ورد فى الحديث - فمن رآهم ذكر الله ،واستفاد طهارة قلبه بمجالستهم . " .

- مما سبق يتضح أن تقسيم الترمذى للعلماء يشمل فريقين متمايزين - برغم أنه تقسيم ثلاثى فى ظاهره :

القسم الأول من الفريقين :

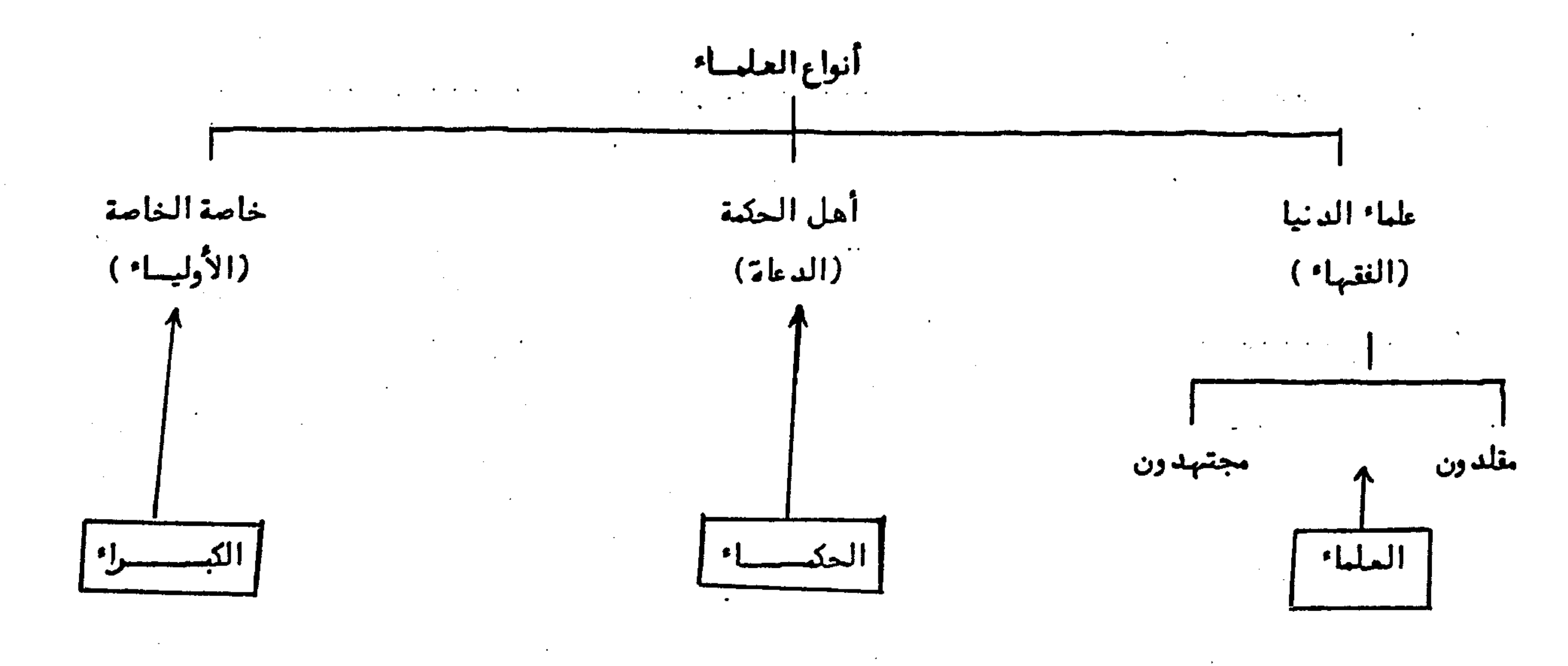
علماء الظاهر ويقصد بهم الفقهاء وقد قسمهم إلى قسمين يشتملان نوعين من الفقهاء وهما : المقلدون (النقلة الرواه) والمجتهدون •

القسم الثاني من الفريقين :

علماء الباطن وهم فريقان أيضاً أولهما : أهل الحكمة وهم المستوى العادى من الدعاة البصراء بحكمة الله فى خلقه وحسن تدبيره •

وثانيهما : خاصة الخاصة وهم الأولياء الذين يمثلون صفوة العباد والزهاد •

وواضح أنه حاول فى تقسيمه هذا — كما لاحظنا فى تقسيمه للعلم — اقتفاء أثر الحديث الذى رواه وهو قول الرسول صلى الله عليه وسلم لأبى جحيفه " سائل العلماء وخالل الحكماء وجالس الكبراء " والرسم التوضيحى التالى يبين تقسيم الحكيم الترمذى للعلماء •


أنواع العلماء
علماء الدنيا
(الفقهاء)
أهل الحكمة
(الدعاة)
خاصة الخاصة
(الأولياء)
مقلدون
مجتهدون
العلماء
الحكماء
الكبراء

جـ ـ الحكيم الترمذى والتربية الاخلاقية :

تعد الأخلاق ضرورة من ضروريات تنظيم المجتمع ، وفى عدم وجودها تسود شريعة الغاب حيث تصنع القوة الحق بدلاً من أن يصنع الحق القوة . وإذا كان للتربية وظائف مختلفة فإن من أهم وظائفها ، الوظيفة الأخلاقية (١٢ ـ ١١٩) .

ولقد كان التصوف فى القرن الثالث الهجرى علماً للأخلاق الدينية ، ومن الطبيعى أن ترتبط الناحية الأخلاقية للتصوف فى هذا العهد بالكلام فى النفس الإنسانية وتصنيف قواها وبيان آفاتها وأمراضها وطرق الخلاص منها ، ولذلك يمكننا أيضا القول بأن التصوف آنذاك كان مطبوعاً بطابع سيكلوجى إلى جانب الطابع الأخلاقى ، وإن شئت قلت أن مبحث الأخلاق عند الصوفية وقتئذ كان قائماً على أساس تحليل النفس الإنسانية لمعرفة أخلاقها الذميمة ، والتكمل الخلقى عندهم يكون باحلال الأخلاق المحمودة محل الأخلاق الذميمة (١٣ ـ ١٥٢) والحكيم الترمذى من الرعيل الأول من الصوفية المسلمين وهناك تشابه كبير بينه وبين الحارث المحاسبى السابق عليه (ت ٢٤٣ هـ) وله آراء قيمة فى تربية النفس ، كما أن الترمذى أثر فيمن جاءوا بعده ، كابن عربى وابى حامد الغزالى وغيرهما .

وللحكيم الترمذى نظرات وممارسات عديدة لبعض القيم والسمات الأخلاقية التى يصل توفرها فى شخصية المسلم به إلى أقصى ما يمكن أن يتمناه من الرضى نتيجة نهجه وسلوكه الصراط المستقيم ، ويمكن أن نذكر من هذه القيم والسمات :

١ ـ جهاد النفس :

يرى الحكيم الترمذى أن جهاد النفس فى أخص معانيه أن يمنعها الإنسان من الحرام ، أما أدب النفس فهو أن يمنعها من الحلال حتى لا تطمع فى الحرام ، فإذا عزم العبد على مجاهدة النفس ، فمن مجاهدته لنفسه أن يلزم كل جارحة من جوارحه الفطام عن عملها ، حلالاً كان أو حراماً حتى يستريح من تحكمها ، وتستسلم له ولتوجيهه فإذا اتجه إليها اتجه بحق ، وإذا انصرف عنها انصرف بحق ، دون أن يكون واقعاً تحت تأثير رغبته النفسية ، ظاهرة أو خفية ، ويضرب الحكيم الترمذى لذلك مثلا بشهوة الكلام ، وذلك أن النفس قد اعتادت لذة التكلم بالكلام ، فإذا لم يلزمها الصمت فيما لابد منه حتى تعتاد السكوت عن الكلام فيما لابد منه فقد ماتت شهوة الكلام فاستراح وقوى على الصدق ، فلا يتكلم إلا بحق ، فصار سكوته عبادة ، وكلامه عبادة لأنه إن نطق نطق بحق وإن سكت

سكت بحق (١٦١ـ١٢٦) .

وللحكيم الترمذى كتاب كامل مستقل عن رياضة النفس حقق ونشر (١٩١ـ٩٦) وهـو يعرض لرياضة النفس كما يراها الترمذى . وقد احتوى هذا الكتاب على المباحث الآتية :

١ـ أجزاء الإنسان وعمل كل جزء .
٢ ـ موضع الشهوة .
٣ ـ موضع الفرح .
٤ ـ أصل الهوى .
٥ ـ موضع المعرفة والعقل .
٦ ـ الكبر فى النفس .
٧ ـ الاستنطاق للذرية .
٨ ـ نور التوحيد .
٩ ـ المجاهدة .
١٠ـ الجوارح السبع .
١١ـ سلطان الشهرة وسلطان المعرفة .
١٢ـ منع النفس من الحلال .
١٣ـ سلطان القلب على الجوارح .
١٤ـ الفرح المحمود والمذموم .
١٥ـ اشراق الأنوار على القلب .
١٦ـ بحث الأكياس عن حال النفس .
١٧ـ الجوارح السبع أمانة .
١٨ـ البدء بالصوم .
١٩ـ اتقاء الفرح .
٢٠ـ ورع المؤمن .
٢١ـ صقل القلب بالأنوار .
٢٢ـ تجلى الله .
٢٣ـ مطلب الإحسان .
٢٤ـ أصناف العمال .
٢٥ـ إجمال فى اتقاء الفرح فى السير إلى الله .

٢٦ـ مطلب النيات.

٢٧ـ ابن آدم مطبوع على سبع .

٢٨ـ وصف رياضة النفس.

ومن الطبيعي أن تكون أفكار الحكيم الترمذى فى هذا الكتاب مستمدة بقدر كبير من تجربته الخاصة فى العزلة ،وكثرة الدعاء ،ودوام المناجاة ،حتى تحققت له بذلك طريقة خاصة رضى عنها . والذى يجعلنا نذهب إلى هذا الرأى إننا وجدناه فى أماكن أخرى يرى أن علم التصوف هو (علم البحث عن الطريق ،أى الطريق الذى يتبعه سالكه للوصول إلى ولاية الله ومعرفته) . ومع ذلك فهو لايرى أهمية لوجود شيخ يرشد المريد مما يدل على خصوصية تجربته نظريا وتطبيقيا .

٢ـ التوبة

وهى تعطى لهؤلاء الذين يستحقون محبة الله لأنهم يتوبون إليه ويتطهرون .
" إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين " البقرة : ٢٢٢ .

ويرسم الحكيم الترمذى للسلوك الإنسانى صورة رائعة آخاذة يحشد لها طائفة من الصفات والأخلاق العالية لابد أن تتحقق فى المرء الذى يتصوره الحكيم الترمذى ليكون مثلاً علياً وقدوة حية تتمثل فيه القيم والأخلاق العليا التى ينشدها الترمذى ويدعوا إليها ، وهذه القيم تقوم على أسس ثلاثة هى الحق والعدل والصدق ،وهذه الثلاثة بدورها تتقاسم القوى الإنسانية المختلفة فتوجهها إلى الطريق السوى الذى يحقق لها السلوك السليم والنهج القويم ،ويحدد الترمذى مناطق نفوذ كل من هذه الأسس الثلاثة وعلمها فى الوجود الإنسانى فيقول : " ... وجدنا دين الله مبنيا على ثلاثة أركان " الحق العدل ،الصدق ،فالحق على الجوارح والعدل على القلوب ،والصدق على العقول فإذا قرب غداً إلى الميزان لوزن الأعمال وضعت الحسنات فى كفة الحق والسيئات فى كفة العدل ،والصدق لسان الميزان به يتبين رجحان الحسنات على السيئات ،فمنتهى رضى الله على العباد فى عبوديتهم كل أمرئ اجتمعت فيه هذه الثلاثة ،فإذا انتقد الحق من عمل خلفه الباطل ،وإذا انتقد منه العدل خلفه الجور ،وإذا انتقد منه الصدق خلفه الكذب ،فهذه الثلاثة هى جند المعرفة وهذه الثلاثة التى هى أضدادهم هى جند الهوى.

وذلك إن مظاهر السلوك الإنسانى تنحصر فى هذه الثلاثة ،الجوارح ،والقلوب ، والعقول ،فللجوارح وظائف وأعمال ،وللقلوب مشاعر وأحاسيس وعواطف ،وللعقول توجيهات وهذه الأصول الثلاثة تستوعب كل ألوان النشاط للسلوك الإنسانى فإذا ضبطت موازينها بالحق والعدل والصدق ،أخذت بزمام الإنسان إلى الغاية المثلى التى ينشدها الدعاة المصلحون والفلاسفة والمربون للإنسان فى هذه الحياة ،ولا تتحقق هذه الغاية فى أعلى مثلها إلا للعارف الذى تحدث الترمذى عنه حديثاً محاطاً بهالة من القداسة والمثالية العليا التى لا ينالها إلا القلائل من أفراد بنى الإنسان (١٩–٣٢٤).

٣– الزهد فى الدنيا

الركن الثالث من أركان التربية الخلقية عند الحكيم الترمذى بعد رياضة النفس والتوبة ،قطع العلاقة بالدنيا لا بمعنى العزلة والرهبنة كما فهم ذلك بعض الصوفية ، بل بمعنى الزهد فيها وعدم الخضوع لزينتها ولهوها . فالدنيا شديدة الفتنة ،ولا يستطيع الإنسان –إذا تعلق بها– أن يجمع بينها وبين حب الآخرة ،أو السمو الخلقى الذى يبتغيه الحكيم الترمذى ،وفى ذلك يقول :

" مثل الدنيا مثل بحر يغرق فيه من دخله ،لأنه لايرى جانبه فإلى كم يسبح وهو فى السباحة حتى يعيا ويلقى بيديه إلى التهلكة ؟ وربما هاج ريح فيغرق فى تلك الأمواج . فالكيس من لزم الساحل وتجنب البحر " (٣–٦٨).

وخلاصة ما سبق :

أن جوانب التربية الخلقية عند الترمذى ثلاثة :

الأول : جهاد النفس بمعنى (أخذ الاستعداد لحياة الاستقامة)

الثانى : التوبة بمعنى (التبرؤ من الحياة الماضية)

الثالث : الزهد فى الدنيا بمعنى (سد باب الفتن)

د – الحكيم الترمذى والطبيعة الإنسانية :

إن كل عمل تربوى بما يتضمنه من أهداف وخبرات ،وطرق وأساليب يعبر بالوعى أو باللاوعى عن وجهة نظر فلسفية بشأن النظام الاجتماعى الذى تعتبر التربية جزءاً منه . وعن علاقة هذا النظام بالإنسان ،وعن طبيعة هذا الإنسان الذى يقع عليه فعل التربية منذ البداية . ولهذا فان استيضاح وجهات النظر المختلفة التى عالجت طبيعة الإنسان

ينبغى أن يكون البداية الأساسية لكل من يتصدى لتوجيه أى عمل تربوى تمهيداً لتكوين مفهوم علمى سليم عن طبيعة الإنسان يتخذ من بعد ذلك أساساً لمراجعة جوانب العملية التربوية كلها وتحديد دورها فى الثقافة التى يعيش فيها الناشئون ، إذ أن أخطر ما يصيب التربية أو يعوقها عن تحقيق وظائفها الثقافية ، أن تتعدد وجهات النظر بشأن طبيعة الإنسان أو يحيطها الغموض بما يؤدى إلى غموض الأسس التى تقوم عليها العملية التربوية فى المدارس وغموض أهدافها كذلك (٢٠ــ٧٩) .

وعلى هذا فمن المهم أن يكون واضحاً لدى فلاسفة التربية ، وواضعى سياستها ، ومخططى برامجها ، ما طبيعة الإنسان الذى يتعاملون معه ؟ .. أمسير هو أم مخير ؟ أخير هو أم شرير ؟ اللوراثة ينتمى أم للبيئة ؟ ويمكن أن نستشف من تحليلنا لبعض أفكار الحكيم الترمذى مجمل آرائه فى الطبيعة الإنسانية وذلك من خلال تناوله للقضايا الآتية :

* الطبيعة البشرية خيرة أم شريرة :

يرى الحكيم الترمذى أن الطبيعة البشرية مزاج من الخير والشر . حيث يقول أن الله تعالى خلق أجسادنا قوالب ووضع فيها الروح والنفس ، والروح تدعو إلى الطاعة والنفس تدعوا إلى الشهوات . وهذه الحقيقة تتفق مع الرؤية الإسلامية للطبيعة البشرية والتى عبر عنها القرآن الكريم بقول الله عز وجل :

" ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها " (الشمس : ٧ــ١٠) .

* الإنسان مسير أم مخير :

نستطيع أن نشبه مناخ الحرية بالنسبة للتعليم ، بالمناخ الفيزيقى بالنسبة للكائن الحى ، ومن ثم فبقدر ما يكون متاحاً من الحرية ، بقدر ما نطمئن على صحة التعليم وسلامة البنية الشخصية للمواطنين ، ولا نستطيع أن نزعم أن الحكيم الترمذى قد ناقش هذه القضية فى صورتها التطبيقية فى أرض التعليم ، وإنما ناقشها من خلال منظورها الفلسفى . فهو يقول فى كتابه " باب فى صفة العلم " يصف أمر الله فى سائر المخلوقات بأنه على سبيل الجبر ، وأن أمر الله على آدم وذريته خاصة عن طريق التكليف والابتلاء ، واتخاذ الأسباب والاجتهاد (١٧ــ١١٤) .

فبالرغم من أن الجبر هو الأصل الجامع فى اتجاهات الصوفية ،إلا أننا يمكن أن نستشف من قول الحكيم الترمذى السابق أن الإنسان مسير فى أمور ومخير فى أمور أخرى ، حيث نجد أن الحكيم الترمذى يدعو إلى الأخذ بالأسباب والاجتهاد وذلك عن طريق العقل الذى فضل به الله الإنسان على غيره من المخلوقات ،وعلى هذا نستطيع أن نقول أن الحكيم الترمذى يتفق مع معظم المذاهب والنظريات التربوية الحديثة على أن (حرية الإرادة) أساس لا غنى عنه لحسن قيام العملية التربوية ومما يؤكد وجهة نظره هذه كتاب له بعنوان :
" بيان الكسب " وهو يعتبر رفضا لهؤلاء الذين يدعون التصوف ويركنون إلى الكسل ويصبحون عالة على الآخرين .

* **رأى الحكيم الترمذى فى الروح**

يرى الحكيم الترمذى أن الله تعالى خلق أجسادنا قوالب ليضع فيها ما يبرزه العبد بحركاته بتلك الحياة التى فى روحه ونفسه ،والروح سماوى وفيه الحياة ،والنفس أرضية وفيها الحياة فهما يحركان الجوارح وسمى الآدمى حيا بحياة النفس والروح ،وحياة النفس ،ففى النفس حياة وفى الروح حياة فالروح يدعو إلى الطاعة مع القلب والنفس تدعو إلى الشهوات والحياة فى كليهما .

الحكيم الترمذى وتربية العقل

يرى الحكيم أن العباد يتفاوتون فيما بينهم بقدر حظوظهم من العقل هذه الحظوظ تتفاوت تبعا لقربهم أو بعدهم من الله تعالى ،لأن العقل مصدر المعرفة .. " وأوفر العباد حظا من كنوز المعرفة ،أوفرهم عقلاً فبالعقل يطالع العبد كنوز المعرفة ".
" فالعقل فى الإسم واحد ،وسلطانه ناقص وزائد ،وهو متبوع يقوى بقوة أركانه ويزداد بزيادة سلطانه ،فالعقل واحد لكن الكثرة فى سلطانه ومقاماته ومجالاته . فإذا كنت أمام نظرة تحليلية للمعرفة فى ضوء الإدراك ،فأنت هنا أمام عقل فطرى . وقد تنتقل إلى مجال أوسع هو مجال التجربة ، فيكتسب العقل خبرات تجريبية يدعم بها معارفه وأفكاره ، أما إذا كنت أمام نظرة غيبية كونية فالعقل قاصر ولا مجال للتجربة ومن ثم فالمجال هنا للروح .

وفى هذا الصدد يؤكد الحكيم الترمذى أهمية عقل التجربة فهو أنفع من عقل الفطرة لأنه خلاصة التجارب الحيوية ،فالتجارب تثرى نكر الإنسان وتفيض عليه بالمعارف ثم يوصى الحكيم بصحبة الحكماء ففى صحبتهم نفع وبركة وسكينة ،أما العقل الموزون فهو عقل ربانى

مطبوع بنور الهداية الربانية وهو الهادى إلى الطريق القويم ولا يصل إلى هذا العقل إلا الإنسان الكامل العارف بالله •

ويفرق الحكيم الترمذى بين العقل والذهن ، فالذهن تتصور فيه الأمور جملة واحدة ، أما العقل فمن شأنه أن يحلل هذه الأمور ، فمعرفة العقل تحليلية ومكانها الرأس أما معرفة الذهن فهى معرفة شعورية تتصور فيها الأمور جملة واحدة ومكانها الصدر •

وبذلك يكون الإدراك عند الحكيم الترمذى على ضربين : ادراك مكانه الرأس وهو ما يأتى نتيجة لتحليل العقل لهذه المدركات التى تأتى إليه عن طريق الإدراك الحسى بواسطة الحواس الخمس ، وادراك آخر مكانه الصدر ، وهذا يتأتى للإنسان جملة والهاماً وشعوراً بواسطة الذهن • وهذا ما يمكن أن نطلق عليه الفطنة أو الكياسة (٢٢ـ٢٠) •

وفى هذا ما يبدد الوهم الشائع عند البعض من المعاندين للدين من تعارض بين العقل والشرع ، بل يرى الحكيم الترمذى أن هناك تلازماً بين العقل والشريعة ، حيث يشرح لنا كلمة " عاقل " فى كتابه " الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب " فيرى أن العاقل هو صاحب العقل الذى يفهم عن الله أمره ونهيه ووعده ، ويفهم مراده فى الأشياء وعلى قدر ما يوفقه ويكشف له تعظيم أمره واجتناب مناهيه ، وهذه كلها لا توجد إلا بلطف الله وحسن نظره فيفضله على غيره باللب الموصوف والنور المعروف (١٩ـ١١ ٣١) •

وقد قسم الحكيم الترمذى العقل إلى قسمين جعل أحدهما خاصا بأمور الدنيا بما يؤهل الإنسان لأمور الآخرة ، وجعل الثانى خاصاً بالتجرد عن كل أحوال الدنيا وترقب الألطاف الإلهية وانتظار فضل الله تعالى وفى هذا يقول : " والعقل على قسمين : أحدهما القصد به ازالة الحمق وفعله حسن التدبير فى أمر الدنيا والاقبال على أمور الآخرة ، والثانى عقل الكرامة الذى هو ينفعل كله بالتوفيق مع رؤية المنة والتبرؤ عن النفس " •

وفى موضع آخر يقسم العقل تقسيماً مكانياً حسب تصوره الخاص فيقول :

" ثم العقل عقلان / عقل الحجة وموضعه الدماغ وشعاعه إلى القلب وعقل الكرامة ومستقره فى الغيب ونوره وسلطانه فى القلب • ثم هو نوعان : عقل طبيعة وعقل تجربة • وكلاهما يؤدى إلى المنفعة " (٣ـ٧٩) ولعله يقصد بعقل الطبيعة العقل الإنسانى فى صورته الفطرية قبل أن يتحول إلى عقل التجربة بعد أن يكتسب ما يمر به من معارف وخبرات كما سبقت الإشارة إليه •

الحكيم الترمذى والتحليل النفسى :

يرى الحكيم الترمذى أن النفس نفسان : نفس ظاهرة ونفس باطنة ، وأصل خلقة النفس الباطنة فمن موطىء الشيطان وتحت قدمه وأثره ، وأما النفس الظاهرة فمن خطواته وبين موطئة وهى ممدودة ومبسوطة من النفس الباطنة .

والنفس الظاهرة غير مذمومة ولا محمودة وإنما هى متابعة لمن قادها وغلب عليها واستولاها من ذلك قول الله عز وجل عما يحكى عن شهادة يوسف عليه السلام عليها بالسوء فقال :

" وما ابرىء نفسى ان النفس لأمارة بالسوء " (يوسف : ٥٣) .

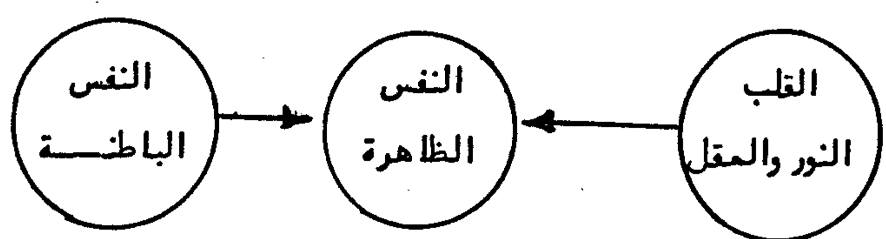
والنفس الباطنة فى الإنسان هى الشيطان الذى يجرى فيه مجرى الدم من اللحم ، وهى تعمل كى تغلب على النفس الظاهرة وتأسرها مدفوعة فى ذلك بهذه العداوة التى تعمل بين ابليس وآدم ، وأما القوة المادية لهذه النفس الباطنة والتى تباشر الحرب والعداوة معها فليست هى الروح ولكنها القلب بما فيه من النور والعقل ، فهو يحارب النفس الباطنة ، ويريد أن يقهرها ، ومظهر ذلك أن يغلب على النفس الظاهرة بأسرها فإذا غلب عليها فقد فاز على النفس الباطنة ، وإذا غلبت هى عليه فقد فازت على القلب .

أما صفة النفس الظاهرة فأنها تابعة لمن غلب عليها ، فإن غلب عليها الملك وهو النور والعقل ، كانت تابعة لهما ، وإن غلب عليها النفس الباطنة انقادة لها .

وعلى ذلك فالنفس الظاهرة هى مظهر وموطن الصراع بين النفس الباطنة والقلب فإذا جاهدت النفس الظاهرة النفس الباطنة وحاولت الانفكاك من قيدها انقادت إلى العقل والقلب وتم صلاحها ، فالنفس الباطنة أطاعت أبليس بما كان يأمرها من الفحش والأباطيل ولم يكن للنفس الظاهرة بد من الانقياد لها ، فكانت تواتيها فيما يكره الله ويخضع لها . فالنفس الظاهرة هى الصيد السهل للنفس الباطنة تستطيع أن تغرز فيها سمومها بفعلها الشيطان فاذا أصلح البارى سبحانه النفس الباطنة صلحت تبعا لها النفس الظاهرة ، أما إذا لعنت النفس الباطنة وسيطر عليها الشيطان اللعين فلا سبيل للنفس الظاهرة إلا التقوى والالهام من البارى سبحانه حتى تقوى على مجاهدة شيطان النفس الباطنة ويكتب لها الانفكاك من أسرها وتطمئن إلى بارئها .

ويتصور الحكيم الترمذى النفس مدينتين عظيمتين ، وبينها تفاوت وتفاضل ، احداهما

باطنة والأخرى ظاهرة ،فالباطنة هى دار حرب ،والظاهرة تابعة لمن تسلط واستولى . (٢٢ـ١٨٧) .



النفس الظاهرة فى صراع بين القلب والنفس الباطنة

هـ ـ المعرفة عند الحكيم الترمذى

إذا كانت محصلة العملية التربوية إنما هى (سلوك) و (عمل) يبتدى لدى الإنسان فى حياته الخاصة والعامة ،إلا أن هذا السلوك وذلك العمل ينبنيان على قاعدة فكرية تشكلها وجهة نظر المربى فى المعرفة (١٥ـ١٢٦) .

وهذا يجعلنا نحاول الكشف عن نظرية المعرفة عند الحكيم الترمذى من خلال التوقف عند بعض المفاهيم المتصلة بالعملية المعرفية وعرضها كما يراها الحكيم الترمذى . وهى :

١ـ القلب

يرى الحكيم الترمذى أن القلب تال للصدر ،والفؤاد فى داخل القلب ،يقول القلب هو المقام الثانى ، وهو داخل الصدر ،وهو كسواد العين الذى هو داخل العين ،وكموضع الفتيلة فى القنديل ،وكاللوز داخل القشر الأعلى . وهو معدن نور الإيمان ،ونور الخشوع ، والتقوى والمحبة والرضا واليقين والخوف والرجاء ،والصبر والقناعة ،وهو معدن أصول العلم لأنه مثل عين الماء ،والصدر مثل الحوض يخرج من العين إليه الماء ،والقلب يهيج منه اليقين والعلم حتى يخرج إلى الصدر . وقد تحدث الترمذى عن دور القلب فى المعرفة فقال : " فجعل للقلب عينين وجعل لهما طريقا الى المظهر وهو العرش ،ومد بصر قلبك الى مظهر نور العلم بالله ،والمعرفة بالله ،حتى يرجع بصرك الى صدرك بعلم غزير .

ثم يتحدث عن ضرورة تطهير القلب بوصفه مصدراً من مصادر الحصول على المعرفة الإلهية فيقول : " الطهارة هى ترك ما اضطرب القلب عليه ورابك منه تورعا ثم تطهيره من التعلق بالشهوات والاشتغال فإذا أنت فعلت ذلك صقلت قلبك فصار لك مرآة بالتورع " ، أى أصبح صالحاً لاكتساب المعرفة الإلهية .

٢ ـ العقـل

يرى الحكيم الترمذى أن أول مقام العقل هو عقل الفطرة ،وهو الذى يخرج به الصبى والرجل من صفة الجنون فيعقل ما يقال له ،لأنه يميز بين الخير والشر ،ثم يلى ذلك عقل حجة ثم عقل التجربة وهو أنفع الثلاثة وأفضلها لأنه يصير حكيماً بالتجارب يعرف مالم يكن بدليل ما كان وهو يقصد بالتجربة هنا الخبرة والمعرفة العقلية عنده مقصورة على استيعاب الحقائق الشرعية من الكتاب والسنة بوصفها أول الطريق الصحيح إلى العبادة الصحيحة •

٣ ـ الـروح

يقول الحكيم الترمذى أن الأرواح أنواع : أرواح تجول فى البرزخ فتبصر أحوال الدنيا وأرواح تحت الأرض ،وأرواح طيارة فى الجنان على قدر أقدارهم من السعى أيام الحياة إلى الله تعالى والعبودة لهم فى محلهم • والروح مسكنها فى الرأس منفشة فى جميع الجسد (٢٢ـ٢٠٨) •

٤ ـ النفـس

يحذر الحكيم الترمذى من أن النفس أرضية شهوانية ،وميالة إلى شهوة عقب شهوة ، لا تهدأ أو لا تستقر فأعمالها مختلفة لا يشبه بعضها بعضا مرة عبودة ومرة ربوبة ومرة استسلام ومرة تملك ومرة عجز ومرة اقتدار فإذا ريضت النفس وذلت وأنقادت وكان السلطان والغلبة للروح جاء الحياء ومنه العفة والوقار • والنفس فى الجسد ومعدنها فى البطن ثم هى منفشة فى جميع الجسد (٢٢ـ٢٠٩) •

وقد أجمل الحكيم أبو عبد الله جوانب نظريته المعرفية فى قول مقنن شامل إذ يقول فى كتاب: "الأكياس والمغترين "إنا وجدنا دين الله عز وجل مبنيا على ثلاثة أركان : على الحق والعدل والصدق ،فالحق على الجوارح ،والعدل على القلوب ،والصدق على العقول" فالأركان الثلاثة جند المعرفة وهى تقابل فى التكوين البدنى للإنسان الجوارح والقلب والعقل التى يعدها الحكيم أدوات ومصادر المعرفة ،فالحق على الجوارح لأن الجوارح هى التى تترجم فكر الإنسان إلى حركات وسكنات ،والعدل على القلوب هى منبع نور معرفة الإنسان أما الصدق على العقول لأن العقل مناط التكليف فى الإنسان ،وبذلك لم يهمل الحكيم الترمذى دور أى جزء من أجزاء البدن فى تحقيق المعرفة سواء كان القلب أو الجوارح إيمانا منه بأن كل جزء منها خلقه البارى سبحانه لحكمة وفضل وليس عبثا وبذلك نقف

على جوانب المعرفة فى فكر الحكيم الترمذ ى وهى :

الجانب الأول :

المعرفة الفطرية الطبيعية وتتم عن طريق الملكات والجوارح ويشترك فيها جميع الآدميين •

الجانب الثانى :

المعرفة العقلية وتتم باستخدام العقل وهى للخاصة •

الجانب الثالث :

المعرفة القلبية ويختص بها القلب وهى لخاصة الخاصة من أهل العرفان •

وللحكيم الترمذ ى رأيه الواضح فى تحصيل المعرفة ، فهو يقول فى كتابه : " الأعضاء والنفس" " أما المعرفة فإنه إن سئل : أفعل الله هى أم فعل العبد ، قال : المعرفة هى من فعل العبد والمنسوبة إليه ، وبها يصير محمودا عند ربه باستعمالها ويدرك بها معرفة ربه ، وبخلوه عنها يصير مزموما ، ولكن السبب الذ ى به يصل العبد إليها خمسة أشياء ، وهن : الفهم ، والذ هن ، والذكاء ، والحفظ ، والعلم ، وهن ذكر الفطرة ، وهن من الله لعبده ، وليس إلى عبده منهم شئ ، ولكنه محمود باستعمالها ، مذموم بترك استعمالها ، وأما نور المعرفة فهو من الله ليس إلى العبد منه شئ" (٧ ـ ١١١) وعلى هذا نجد أن الحكيم الترمذ ى يرى أن المعرفة مكتسبة وليست توفيقية ، وأنه يمكن الحصول عليها عن طريق كل من العقل والحواس والوحى والنقل •

كتاب "المنهيات" للحكيم الترمذى وقيمته التربويـــة

يمتاز هذا الكتاب (الذى ظل مخطوطاً حتى حقق لأول مرة سنة ١٩٨٥م) بأنه فريـد من نوعه فى المكتبة العربية. فقد جمع فيه الحكيم الترمذى ما ورد عن النبى صلى الله عليـه وسلم فى باب "النهى" عن أقوال أو أفعال لا تليق بالإنسان المسلم الحق. وسمـــاه : "المنهيات" أى الأمور المنهى عنها.

ويحتوى الكتاب على (١٧٠) سبعين ومائة باب من أبواب النهى، بعضها يكون النهى فيه على سبيل الأمر القاطع أو الزجـر العنيف عن فعله، وبعضها يكون النهى فيه على سبيل الإرشاد والتأديب واختيار الأفضل. فعلى سبيل المثال حين يكون النهى عن الربا بأنواعه المختلفة يكون نهياً جازماً لأنه يتفـق مع نصوص القرآن القاطعة فى تحريم الربا، وحين يكـون النهى عن اتخاذ بعض الأسماء أو الألقاب أو الكنى، يكون ذلك من باب التأديب والإرشـاد لأنه قد يحدث فى بعض الناس دون سوء نيه. ولأنه ليس فى فعله إضرار بأحد من الناس.

مآخذ على الكتـاب :

إلا أن الكتاب ـ مع طرافه موضوعه وشمول أبوابه ـ لا يخلو من مآخذ يمكن ايجازهـــا فيما يلى :

١ ـ هناك روايات عديدة عن أمور منهى عنها انفرد الحكيم الترمذى بروايتها ولم يجد هـا محقق الكتاب فى مصادر السنة المعروفة من الكتب الصحاح الستة والمسانيد المشهورة وكتب السنن الشائعة.

والحكيم الترمذى ـ مع علو شأنه فى التصوف وشهادة الكثيرين له بأنه من رواة الحديث وتلقيب الذهبى له بلقب (الحافظ) ـ ليس من أولئك النفر المرموقين من أهل الحديث الذين يطمئن الإنسان إلى روايتهم. ذلك أنه اتخذ العقل معياراً للحكم على صحة الحديث أو ضعفه (أو وضعه).

ففي كتابه (نوادر الأصول) عقد فصلاً عن صدق الحديث افتتحه بحديث رواه عـــن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيه : "إذا حدثتم عنى بحديث تعرفونــــه ولا تنكرونه ـ قلته أو لم أقله ـ فصدقوا به " وإنى أقول ما يعرف ولا ينكـــره، وإذا حدثتم عنى بحديث تنكرونه ولا تعرفونه، فكذبوا به فإنى لا أقول ما ينكر ولا يعرف".

وفى اختيار الحكيم لهذا الحديث وتصديره هذا الفصل به ما يدل على رأيه ومنهجه فى تقييم الأحاديث .

٢ — هناك أنواع من المنهيات أوردها الحكيم الترمذى ثم استدرك عليها فى شرحه بعض الآثار التى تعارضها ما أظهر عله فيها بمظهر التناقض . فمن ذلك — مثلاً — روايته للنهى عن تقبيل الرجل الرجل ، ثم استدرك عليها بحديث رواه عن الإمام أحمد بن حنبل ابنه عبد الله فى الزوائد وشرح هذا الحديث ثم استثنى الأولياء من هذا النهى وقال أن النهى هنا ينصرف للعامة مع أنه لا يستند فى تخصيص الحديث — إن صح الحديث — إلى أى سند شرعى وفعل نفس الشئ فى النهى عن الرقية إلا أنه استدل .

٣ — إن الكتاب تضمن بعض المنهيات التى ثبت ضعف سندها من الأحاديث وإن كان لها سند آخر من القرآن مثل حديث النهى عن النميمة والاستماع إلى الغيبة الذى استدل به الحكيم الترمذى ، فقد رواه الطبرانى من حديث ابن عمر وضعفه الحافظ العراقى فى تخريجه لأحاديث إحياء علوم الدين للغزالى (١٤٣/٣) كما ضعفه الهيثمى فى مجمع الزوائد (الخشت / ٩٥) . والغيبة محرمة بنص القرآن كما هو معروف .

٤ — كما أنه أتى بأحاديث نهى ضعيفة وليس لها سند من القرآن أو السنة الصحيحة أو الإجماع . كالنهى عن مصافحة الذمى اعتماداً على حديث رواه الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة . وقد ضعفه علماء الحديث لأن فى سلسلة رواته سفيان ابن وكيع وهو ضعيف (الخشت / ١٤٧) وكيف ينهى الإسلام عن مصافحة الذمى وقد قال تعالى : " لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين " (الممتحنة / ٨) .

وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن المقصودين فى هذه الآية هم الكفرة وليس الذميين فكيف يأمر الإسلام ببر الكافر — غير المعتدى — ثم ينهى عن مصافحة الذمى وهو أقرب مودة للذين آمنوا إذا كان نصرانياً مثلاً ؟ وكيف ينهى عن مصافحتهم وقد أباح التزوج منهم بنص القرآن فهل يمكن أن يتزوج المسلم كتابية ويباشرها دون أن يصافحها ؟ .

على أن مثل هذه المآخذ لا تغض من قيمة الكتاب ، ولا تحط من قدره ، فهو كما

تقدم فريد من نوعه وقد ألف فى فترة مبكرة من التاريخ الإسلامى إلى حد ما مما يجعله عرضة لمثل هذه الصفات دون غمط لحقه كمؤلف رائد فى ميدانه.

القيمة التربوية للكتاب :

يمثل النظام القيمى فى أى مجتمع من المجتمعات الإنسانية المحور الذى تدور حوله العلاقات والمعاملات. وتمثل القيم الأخلاقية الركائز التى تستند إليها سلوكيات أفراد المجتمع من جهة. ومن جهة أخرى، تمثل القيم الخلقية القوة الإجتماعية الضابطة لتلك السلوكيات.

ومن الواضح أن النظام الخلقى فى المجتمع الإسلامى يتصف بما يلى :

أولاً : أنه ذو طابع عقيدى : فالامتثال لأوامر الله ونواهيه يستهدف الفوز برضوانه فى الدنيا والآخرة.

ثانياً : أنه ذو طابع فطرى : فكل ما تتضمنه الشريعة من أوامر ونواه يتفق مع الفطرة الإنسانية السوية.

ثالثاً : أنه ذو طابع نفسى : اجتماعى، فالسلوك الإسلامى ينبع أساساً من خشية الإنسان لربه، ورغبته فى ثوابه، وخوفه من عقابه. ولكن هذا السلوك يصبح - بالتدريج - سلوكاً اجتماعياً تحكمه أعراف المجتمع المسلم قبولاً أو رفضا، استحساناً أو استهجاناً مستنده فى ذلك إلى أسس دينية.

رابعاً : أنه ثابت، فالالزامات الخلقية فى التعاليم الإسلامية لا تتبدل بتبدل الأزمان، ولا تتغير بتغير الحكام، لأن مصدرها الشريعة المنزلة وليست التشريعات الوضعية. وبالتالى فإن مصداقية النظام الأخلاقى الإسلامى تفوق مصداقية غيره من الأنظمة التى تستند إلى مصادر بشرية.

من هذا المنطلق نستطيع أن نقول أن كتاب " المنهيات " للحكيم الترمذى ركيزة هامة من ركائز الفكر التربوى الإسلامى لأنه :

١ - يعتمد على المصدر الثانى للتشريع وهو السنة النبوية المطهرة.

٢ - يشتمل على الشق السلبى من السلوك الإنسانى. بمعنى أنه يجمل - على سبيل

الإحصاء ـ كل سلوك مرفوض في المجتمع الإسلامي من أجل أن يتجنبه الإنسان •

٣ ـ أنه يمثل وجهه نظر الاتجاه الصوفي التربوي من خلال شروح الحكيم الترمذي للأحاديث التي أوردها •

٤ ـ يعد بمثابة " دستور " أخلاقي متكامل يندر أن نجد مثيلاً له في التراث التربوي العربي الإسلامي بهذه الكيفية من التحديد والوضوح •

من هنا يتضح أن الكتاب يستحق القاء الضوء عليه منفرداً ،مما حدا بنا إلى افراده بإشارة خاصة بعد أن تناولنا ـ بشكل عام ـ ملامح الفكر التربوي عند الحكيم الترمذي•

موضوعات الكتاب

هناك أكثر من مدخل يمكن تصنيف الكتاب طبقاً لكل مدخل منها تصنيفا معينا • وقد آثرنا المدخل التالي :

تقسيم الأحاديث المتضمنة في الكتاب (١٧٠) حديثاً إلى عدة محاور تمثل في مجموعها مستويات السلوك الإنساني (المرفوض وفقا لطبيعة الكتاب) على النحو التالي :

أولاً : المنهيات على المستوى الفردي :

أ ـ المنهيات الجسمية

ب ـ المنهيات النفسية

جـ ـ المنهيات العقلية

ثانياً : على المستوى الأسري •

ثالثا : على المستوى المجتمعي :

أ ـ المادي

ب ـ الانساني

رابعا : على المستوى الانساني العام.

خامسا : على المستوى الكوني :

أ ـ التعامل مع الجمادات•

ب ـ التعامل مع الحيوان •

منهج الحكيم الترمذي في كتاب المنهيات

سار الترمذي في الكتاب على النحو التالي :

١ ـ يذكر الحديث الشريف مصدراً بقوله " نهى عن كذا ... ".
٢ ـ يشرح الحديث محاولاً بيان علة النهى أو سبب التحريم.
٣ ـ يؤيد فكرته بالآيات القرآنية أو الأحاديث الأخرى التى تدعم رأيه (أثناء الشرح).
٤ ـ يبين ما إذا كان المقصود من النهى فى الحديث التحريم أو مجرد التأديب.
٥ ـ يبدى أحيانا آراء فقهية متعددة فى المسألة الواحدة. وقد يبدى رأيه الفقهى الخاص به كما فى مسألة (الحلف بغير الله ـ حديث رقم ١١٠).

شرح موضوعات الكتاب

أولاً : على المستوى الفردى :

تضمنت النواهى النبوية التى جمعها الحكيم الترمذى كثيراً من السلوكيات المرفوضة على المستوى الفردى أى تلك الأمور التى لا ينبغى للفرد أن يفعلها لأنها تضربه إما جسميا وإما نفسيا وإما عقليا على النحو التالى :

أ ـ جسميا :

أورد الحكيم الآثار النبوية التى نهت عليه أشياء لها علاقة بجسم الإنسان سواء أكانت هذه العلاقة تتصل بالجسم ذاته كشرب الخمر أم تتصل بالمظهر العام للإنسان من حيث الزينة واللباس.

فمما يتصل باللباس أورد النهى عن عادات عربية كانت سائدة فى عصره مثل: الاحتباء (الجلوس على الإليتين وضم اليدين حول الركبتين وهما منصوبتان) فى ثوب واحد والاشتمال (وهو أن يلتف الانسان بثوبه ويرفع أحد جانبيه يمينا أو شمالا على عاتقه) فى ثوب واحد . وشرح الترمذى هذه الآثار بأن الغرض منها ستر عورة الإنسان لأن عادة العرب كانت ـ وما تزال فى بعض البلاد ـ أن يلبس الإنسان ثوبا تحت إزار وهو قطعة من القماش تلتف على نصف جسمه الأسفل . والجلوس أو الاشتمال فى ثوب واحد ـ أى بدون إزار ـ من شأنه انكشاف العورة وما قد يترتب على ذلك من معصية أو فتنه أو اهدار لآدمية الإنسان وتشبيه له بالحيوانات السائمة التى لا تستتر . كما أورد النهى عن " أن ينتعل الرجل وهو قائم " وشرح ذلك بقوله : " وإنما جعل قوام البدن على الرجلين ، فإذا انتعلت قائماً لم تجد بداً من أن ترفع قدماً لتنعلها ، فصار حمل البدن على رجل واحدة. فاضطربت العروق ، فإذا اضطربت العروق لم يؤمن أن يحدث داء ، لأن العروق مجارى

الدم. فإذا تضايقت في حال الاضطراب، هاج الدم".

وعلى هذا النحو يسير الحكيم الترمذي في شرحه للمنهيات النبوية في هذا المجال مثل النهي عن البول في المكان الذي يغتسل فيه الإنسان، والتبول قائماً، والاستنجاء بروث أو عظم، والاستنجاء بتراب سبق الاستنجاء به، والاستنجاء باليد اليمنى التي يكون بها الأكل والمصافحة، وكذلك النهي عن النظرة الثانية إلى المرأة الاجنبية لأن النظرة الأولى غالباً ما تكون عفوية لأجل معرفة القادمة. أما الثانية فقد ورد النهي عنها لأن الفائدة منها منعدمة كما أورد النهي عن لبس الذهب للرجال. وكان شرحه لهذا النهي منصباً على كون التحلي بالذهب للرجال مظهراً من مظاهر الكبرياء والخيلاء لغلاء سعره. مع أن في تفسير هذا النهي مجالات أوسع من حيث كونه أحد النقدين اللذين يقوم عليهما النظام الاقتصادي العالمي - قديما وحديثا - ففي اتخاذه حليا تعطيل لوظيفته ومن جهة أخرى فقد ورد النص في القرآن الكريم صريحاً في تحريم كنز الذهب والفضة بمعنى حبسهما عن التداول. وكذلك أورد النهي عن التفاخر بلبس الحرير وما شابهه من ملابس غالية الثمن كانت سائدة في عصر النبوة كالقس (وهي ثياب حمراء) مما ورد النهي عنه صريحاً.

وأورد توجيهات السنة الواضحة في النهي عن العبث بجسم الإنسان - لغير ضرورة طبية - كتجميل الأسنان، والخصاء والتنمص (وهو اقتلاع الشعر الزائد من الجبهة نتفا) والوشم (وهو الكتابة بالإبر على الجسم). وفي شرحه لهذه المنهيات ركز على ثلاث نقاط:

إحداها: أن هذه الأفعال من أفعال الجاهلية.

ثانيها: استثناء تزين المرأة لزوجها.

ثالثها: استثناء ما قد تدعو إليه ضرورة طبية وأورد في ذلك حديثاً للسيدة عائشة رضي الله عنها.

كما أورد النهي عن نوم المرء جنبا بغير وضوء، والنهي عن النظر إلى عورة الغير لأن ذلك اساءة لاستخدام نعمة البصر، والنهي عن الأكل باليد اليسرى التي يغلب أن تستخدم في الاستنجاء، والنهي عن النفخ في الطعام والشراب. والنهي عما قد يضر بالجسم كالوصال في الصيام (أي صيام يومين أو أكثر بغير زاد) أو التبتل بمعنى الانقطاع للعبادة والإعراض عن الزواج.

ب - نفسيا :

أورد الحكيم الترمذي أحاديث كثيرة تنهى عن سلوكيات من شأنها إلحاق الضرر بمن يفعلها من الوجهة النفسية ، وفي فعلها دلالة على وجود خلل ما في الشخصية أو مايسميه علماء الصحة النفسية بـ(العقد) النفسية . فمن ذلك ما رواه من النهي عن إسبال الإزار (إطالة الثوب حتى يغطي القدمين) وقد كان مظهراً من مظاهر التكبر والاستعلاء البغيض. وما أورده من النهي عن النياحة (= البكاء بصوت مرتفع فيه ترديد وترجيع) ويشرح ذلك مفرقا بين النياحة على الميت التي تعبر عن الجزع وفقدان الصبر ، والبكاء حنيناً أو ندماً على ذنب جناه الإنسان . فالبكاء ندما على الذنب دليل على رقة القلب ورحمته ورأفته بصاحبه نتيجة الخوف من العقاب . أما البكاء على الميت فدليل على إساءة استقبال المصيبة ونفاد الصبر وضعف الإيمان فضلاً عن عدم جدواه فلا يستطيع الإنسان بالبكاء أن يرد ما فات ولا أن يعوض ما خسر .

وقد حلل الحكيم الترمذي هذا الموقف تحليلاً مستفيضا في عدة صفحات من الكتاب . وانعكس اتجاهه الصوفي على هذا التحليل فهو يقارن بين الصبر على المصيبة وقسوة وقعها على النفس فيقول :

" لحب الصبر حلاوة . ولفراق هذه النفس التي حل بها الموت مرارة . فالمرارة في النفس ، والحلاوة في القلب ، فكلما ثارت حرقة من موضع الرأفة عملت في شأن الدمعة (أي أثارت الدموع) حتى يجري الماء . فكلما ثارت مرارة من النفس من أجل الفراق ، تلقتها حلاوة محبة الله في الصبر فأبطلتها . لانهما اجتمعا في الصدر ، فتتلاشى المرارة وتثبت الحلاوة " .

وعلى هذه الوتيرة يمضي الحكيم الترمذي في تحليل السلوكيات المرفوضة التي تؤثر في صحة الإنسان النفسية كالكذب ، والتشاؤم ، والانغماس في اللهو ، والفخر والتظاهر . كما يورد النهي عن لطم الوجه لما يكون له من أثر سيء في نفسية المظلوم فيشعره بالمهانة والذل .

جـ - عقليا :

أورد الحكيم بعض الأمور المنهي عنها والتي من شأن فعلها الإضرار بعقل الإنسان على أي نحو من أنحاء الأضرار . كالرقية (وهي تلاوة بعض الأشياء على من لدغته حية أو

عقرب أو اتقاء أثر الجن ببعض القراءات) واهتم الحكيم بالتفرقة بين نوعين من الرقية : نوع يعتمد فيه الراقي على خرافات وتعاويذ غير شرعية قال الترمذى أنهم أخذوها من الهند وأن علة تحريمها هي التشبه بأهل الشرك . ونوع آخر أباحه الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الرقية الشرعية التي تكون بتلاوة بعض آيات القرآن الكريم أخذاً من قوله تعالى :

" وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين "(الإسراء / ٨٢) . ومما يتصل بالرقية أيضا تعليق التمائم (والتميمة نوع من الخرز أو الكتابات يعلقه الإنسان على نفسه حتى لا يصيبه الضرر) واتيان العراف أو المنجم الذى يدعى علم الغيب بهدف معرفة ما سيحدث للإنسان في المستقبل من خير أو شر وتصديق ما يقوله . وكذلك السحر وتصديق ما يفعله السحرة أو تعلم السحر . والكهانة وقد كان الكهان يدعون معرفة الغيب أيضا . فكل هذه الأشياء (الرقية غير الشرعية ــ التميمة ــ الذهاب إلى العرافين أو المنجمين أو الكهان ــ السحر) أمور تضر بعقل الإنسان لأنها مظاهر للتفكير الخرافى والإسلام يقوم من البداية على أساس من التفكير العلمى وحفز عقل الإنسان إلى العمل في كل لحظة . وتأمل الموجودات والمخلوقات . وآيات القرآن الكريم ناطقة بذلك في أكثر من موضع كقوله تعالى :

" أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة " (الروم / ٩١) وقوله تعالى : " قل سيروا في الأرض فأنظروا كيف بدأ الخلق "(العنكبوت / ٢٠) وقوله تعالى : " أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها "(الحج / ٤٦) وقوله تعالى : " قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون "(آل عمران / ١١٨) .

بل إن القرآن في تحديه للكفار طلب منهم أكثر من مرة أن يأتوا بدليل واحد على صدق دعاواهم الباطلة التي يتمسكون بها . ويكفى دليلاً على ذلك ما جاء في سورة القصص رداً على ما قالوه وتحكيه الآيات التالية :

" ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين * فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى . أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل ؟ قالوا : سحران تظاهرا ،وقالوا : إنا بكل كافرون * قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين * فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ،إن الله لايهدى القوم الظالمين " (القصص / ٤٧ــ٥٠) .

فطلب منهم أن يأتوا بكتاب أهدى من القرآن والتوراة ووعدهم بأنه سيتبع هذا الكتاب إن جاءوا به وهو يعلم مسبقا أن ذلك لن يكون . ولكنه المنهج الذى اتبعته الدعوة القرآنية والنبوية فى كل مراحلها واعتمدت فيه المنهج العلمى فى التفكير وسيلة للاقتناع حينا ، وللإفحام حينا حسب مقتضى الموقف.

وكما أن التفكير الخرافى يضر بالعقل ، فكذلك هناك أسباب أخرى فسيولوجية للإضرار بالعقل تنجم عن العبث بالجسم كشرب الخمر . وقد أورد الحكيم الترمذى النهى عن شرب الخمر وشرحه على طريقته فى التحليل اللغوى للألفاظ فقال :
" فحرمه الله (أى السكر) لأنه لما دخل طار إلى رأسه ، إلى معدن العقل فأفسده ، وسد الطريق إلى القلب . وذلك أن العقل فى الدماغ ، وشعاعه وعمله فى القلب ، وتدبيره فى الصدر ، فإذا صار سد (أى إذا أقيم سد بينهما) بقى العقل فى الدماغ متكتما (أى لا يرسل أشعته إلى القلب) فاستد الطريق ، ولذلك قيل : سكر (بتشديد الكاف المفتوحة وفتح السين) أى : سد ، وفى ذلك قيل : سكر النهر أى سده ، وسكر غيره ، وساكر بنفسه ، ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن الكفار " وقالوا إنما سكرت أبصارنا " الحجر / ١٥ أى سدت.

وخلاصة السلوكيات التى أوردها - مرفوضة على المستوى الفردى :

في المجال الجسمي:

١ - عدم المحافظة على الجسم فى النوم واليقظة.
٢ - عدم ستر العورات أو النظر إليها .
٣ - المغالاة فى الملابس.
٤ - ارتداء الذهب للرجال .
٥ - الاعتماد على اليد اليسرى فى الأكل .
٦ - اجهاد الجسم بالعبادة الشاقة كالصيام أكثر من الطاقة .
٧ - الاعراض عن الزواج .

فى المجال النفسى:

٨ - الجزع من المصائب .
٩ - البكاء على الميت وعدم الصبر .
١٠ - الكذب .
١١ - التشاؤم .
١٢ - الانغماس فى اللهو (كالغناء الفاحش) .

١٣ ـ التفاخر والتكبر .
١٤ ـ لطم الوجــه .
) تابع المجال النفسى

١٥ ـ التفكير الخرافى بأنماطه المختلفة (التنجيم ـ السحر ـ التعاويذ ...الخ)
١٦ ـ شرب الخمـر
) فى المجال العقلى

ثانياً : على المستوى الأسرى

أورد الحكيم الترمذى كثيراً من الأمور المنهى عنها فى المجال الأسرى مثل التحدث عما يحدث بين الزوجين من لقاء جنسى فهذا فعل مستور ،فيه حشمة وحياء فأخفاؤه أستر ،فإذا حدث به صاحبه أو وصفه كان ذلك فضحاً لما ينبغى أن يكون مستوراً ، كما أن فى إذاعته داعياً إلى الفتنه .

كما جمع من المنهيات النبوية ما يحرم أنواعاً من النساء على الرجل كعمة زوجته أو خالتها فقد وردت السنة بتحريم ذلك تحريماً قطعيا بالإضافة إلى ما ورد تحريمه فى آية " والمحصنات من النساء " فى سورة النساء . كما أورد النهى عن " نكاح الشغار " (وهو أن يقول الرجل للرجل : زوجنى ابنتك هذه على أن أزوجك ابنتى هذه) ويتفق الطرفان على إسقاط المهر واعتبار زواج الأخرى مهراً للأولى . وفى هذا اللون من التزويج مخالفة شرعية لأن المهر من حق الزوجة لايحل لوليها أن يسقطه أو أن يستأثر به لنفسه أو أن يتصرف فيه إلا بأذنها .

وفى معرض العلاقة بين الزوجين ،أورد الحكيم الترمذى النهى عن خروج المرأة إلا بإذن زوجها وشرح ذلك بأن المرأة سكن للرجل ،والعلة فى التزويج العفة والسكون حتى لا تهيج الشهوة فتضطرب النفس وتهبط بصاحبها إلى الدنس فإذا انعقد النكاح ترتبت على الزوج حقوق مالية كالمهر والنفقة على الزوجة وبالتالى ترتبت على الزوجة حقوق معنوية كأن تكون مستعدة لتلبية حاجة زوجها إليها . فإذا خرجت المرأة ـ وهى لا تعلم بالطبع متى تكون حاجة زوجها إليها ـ صارت بذلك عاصية متنكرة لما عليها من حقوق إلا أن يأذن لها زوجها .

كما أورد النهى عن امتناع المرأة عن زوجها إذا طلبها وهو يتصل بما سبق لأن هذا الامتناع خروج منها عن التزاماتها الشرعية إزاء زوجها وقد يترتب عليه انهيار العلاقة

الزوجية أو انحراف الرجل إلى الحرام • وفى المجال الأسرى قد تحدث خلافات جسيمة يصعب علاجها فتؤدى إلى الطلاق• وقد يتكرر الطلاق حتى تحرم الزوجة إذا طلقت ثلاث طلقات • وهنا يلجأ بعض الناس إلى التحايل على النص القرآنى الذى أباح للمرأة المطلقة ثلاثاً أن تعود إلى زوجها إذا تزوجت من غيره ثم طلقت طلاقاً عاديا لا تحايل فيه ،فيجوز لها حينئذ أن تعود إلى مطلقها الأول إذا رغب – ورغبت – فى ذلك• أما ما يسمى بـ(المحلل) أى الذى يتزوج المرأه وفى نيته تطليقها لمجرد التحايل على النص، فقد ورد النهى عنه صريحاً وأورده ، الترمذى وشرحه شرحا وافياً لما فيه من خروج على الأدب الإسلامى ومخادعة لله تعالى لايجرؤ عليها إلا المنافقون ومن ثم فقد ورد هذا النهى مصحوباً باللعنة•

كما أورد بعض الآداب التى تتعلق باللقاء الجنسى بين الزوجين ،كالنهى عن مجامعة الرجل زوجته مستقبلا القبلة لما فى ذلك من سوء أدب إزاء بيت الله الذى من حقه التعظيم ،أو مجامعة المرأة ثم النوم بلا وضوء على الأقل إن كان لايستطع النوم مغتسلا والنهى عن مجامعة المرأة فى حضور أحد حتى ولو كان صبياً فى المهد ،أو مجامعة المرأة وهى حائض من غير ثوب عازل •

ثم أورد الترمذى نهياً عن سفر المرأة فوق ثلاث ليال دون زوج أو ذى محرم يحميها إذا تعرضت للعدوان أو الفتنة•

والخلاصة فى المجال الأسرى:

أن الترمذى أورد السلوكيات الواجب اجتنابها فى العلاقة الخاصة بين المرء وزوجته كما أورد حقوق الزوج على زوجته وحقوق الزوجة على زوجها وفقاً لما تيسر له من أحاديث نبوية مستهديا إلى جانبها بآداب القرآن الكريم •

ثالثاً : على المستوى المجتمعى

يمكننا أن نتناول المنهيات التى أوردها الحكيم الترمذى على المستوى المجتمعى من منظورين :

الأول : منظور البيئة المجتمعية المادية :

حيث عرض من هذا المنظور بعض السلوكيات المرفوضة بسبب أضرارها بالبيئة المادية فى المجتمع مثل الإساءة إلى موارد المياه ومنه قضاء الحاجة فى المياه الراكدة أو الجارية

لما يسببه ذلك من أذى للغير فضلاً عما يسببه من أمراض للشخص نفسه • ومنه قضاء الحاجة تحت شجرة مثمرة لما قد يسببه ذلك من أذى لمن يريد أن ينال من ثمار هذه الشجرة أو من يريد أن يستظل بظلها • أو قضاء الحاجة على حافة نهر يعتمد عليه الناس فى حياتهم كالصيد والسفر والنزهة، أو قضاء الحاجة فى الطريق العام الذى يستخدمه الناس فى كل وقت مما يؤذيهم ويعرضهم للمرض• ومنه البصاق فى البئر الذى يشرب منه الناس•

كما أورد النهى عن سلوكيات تتضمن إفساداً للعلاقات بين الناس من جهة ،وإفساداً للبيئة المادية من جهة كبيع التمر قبل أن ينضج كما أورد النهى عن التصرف فى الموارد الطبيعية كالماء والكلأ فأورد النهى عن بيع أى منهما لأن عليهما تقوم حياة الناس• وفى احتكارهما وبيعهما إثارة للمشكلات الإجتماعية•

الثانى : منظور البيئة المجتمعية الإنسانية :

وفيه ركز الحكيم الحديث حول العلاقات الإجتماعية بين الأفراد ،وأورد النهى عن كل ما يهدد تلك العلاقات بالانهيار أو التفكك أو الضعف، فأورد فى هذا المجال النهى عن بعض العادات الإجتماعية السيئة التى ربما كانت سائدة فى ذلك العصر مثل نوم الرجل مع الرجل أو المرأة مع المرأة دون حاجز من الثياب بينهما لما قد يسببه ذلك من فتنة•

كما أورد النهى عن بعض الآفات الإجتماعية السائدة مثل الغيبة والنميمة لما قد يتولد عنهما من عداوة وبغضاء• ومثل الكذب الذى يجعل المجتمع غير مستقر لأن ما يسوده من أخبار يحيط به التردد والحذر • وركز الحكيم الترمذى فى شرحه لأحاديث الغيبة والنميمة على دور المستمع فى ترويج هذه الآفات ولتعتبر المستمع شريكاً فى الجريمة لأنه بانصاته شجع القائل على الاستمرار فى هذا السلوك•

وأورد النهى عن أنواع من المتجمعات الباطلة كمجالس اللهو ،ومجالس شرب الخمر ومجالس تعليم اللهو • وهنا تعرض لمسألتين من مسائل التعليم • وهما :

١ ـ النهى عن بيع العلم أو أخذ ثمن عليه•

٢ ـ النهى عن تعليم الأطفال الغناء واللهو•

غير أن الأثر الذى أورده للنهى عن بيع العلم بالثمن أثر موضوع أشار إليه ابن الجوزى فى كتاب (الموضوعات) وهو مروى عن الضحاك وأخرجه الطبرانى فى الأوسط (الإحياء / ١ / ٦١) •

كما أورد النهى عن الانغماس فى الشعر المنهى عنه وهو الهجاء الذى يصل إلى تناول الأعراض أو يستعمل الألفاظ القبيحة المهجورة باعتبار ذلك مما يسىء إلى العلاقات الإجتماعية بين الناس أو ما يتصل بمجالس الشعر من لعب ولهو. وحرصاً على سلامة المجتمع من الفتنة وردت منهيات أشار إليها الحكيم الترمذى كالنهى عن خروج المرأة متطيبه متعطرة متبرجة بزينة لا تتزين بها لزوجها مما يكون داعماً للإثارة وعاملاً من عوامل الفساد الإجتماعى ،كما أورد النهى عن كلام الرجل مع المرأة الأجنبية - لغير ضرورة - لما قد يسببه له ذلك من مشكلات شخصية أو أسرية.

وفى مجال العلاقات المادية بين أفراد المجتمع أورد الحكيم الترمذى النهى عن الربا بصورته التقليدية ،كما أورد النهى عن أنواع من البيوع الفاسدة تقوم على الغش والتدليس كبيع الإنسان ما ليس عنده. أو السمسرة فى الأسواق وقيامها على الغش والكذب والأيمان الباطلة.

كما أورد النهى عن سلوكيات تسىء إلى المسجد كدار للعبادة مثل سل السيف فى المسجد لما فيه ترويع للعابدين المؤمنين. وإعداد السلاح (تو يبش السهام مثلاً) فى المسجد ،أو اتخاذ المسجد مكاناً للإعلان عن الأشياء الموجودة أو الاشياء المفقودة أو اتخاذه مكاناً لما لايليق من العمل مثل انشاد الشعر أو القصص غير الهادف أو تنفيذ القصاص أو البيع والشراء.

وخلاصة ما أوردة من أمور مرفوضة على المستوى الإجتماعى :

١- الإساءة إلى المرافق العامة. ٢- الإعتداء على الموارد الطبيعية أو افسادها. ٣- احتكار الأملاك العامة.	فى المجال البيئى المادى
٤- الكذب - الغيبة - النميمة. ٥ - مجالس اللهو واللعب (الإستماع إلى الشعر القبيح أو الغناء القبيح أو اللعب بالشطرنج أو النرد أو شرب الخمر) ٦- خروج المرأة متبرجة بصورة تدعو للفتنة. ٧ - الربا. ٨- البيع والتعامل بالغش والنصب. ٩- الإساءة إلى أماكن العبادة.	فى مجال العلاقات الإنسانية داخل المجتمع

رابعاً : على المستوى الإنساني

هناك سلوكيات مرفوضة إسلاميا لا بوصفها تضر بالإنسان الفرد ، ولا بالإنسان المسلم كعضو في مجتمع مسلم ، ولكنها محرمة عليه بوصفه إنسانا بالمعنى الواسع لكلمة الإنسان التي تجمعه مع غيره من أصحاب الديانات الأخرى الذين يشاركونه الحياة على الأرض ، وتجمعهم به الأخوة الإنسانية الواسعة .

وقد أورد الحكيم الترمذي نماذج لهذه الأمور المنهي عنها بهذه الصفة ، كالنهي عن توارث أهل ملتين ، فلا يجوز لمن يتبع دينا معيناً أن يرث أحداً يتبع ديناً آخر وفي هذا حسم لمشاكل إجتماعية قد تطرأ إذا غير أحد دينه أو إذا تزوج أحد من دين آخر .

ومن ذلك النهي عن بيع الماء والكلأ لأنهما من الموارد الطبيعية التي أوجدها الله في الأرض لينتفع بها الناس جميعا بغير نظر إلى دين أو وطن فهما من الحقوق الإنسانية العامة واحتكار أي منهما يلحق الضرر بالآخرين . ومن ثم نقد نهى الإسلام عن بيعهما بما يتضمنه ذلك بالضرورة من نهي عن احتكارهما . ومن ذلك أيضا النهي عن الغش ـ غش الشيء المباع ـ لأنه نقيصة من النقائص لا تليق بالإنسان ، ولا يجوز له أن يغش أي إنسان مهما يكن مخالفاً له أو موافقا .

ومن ذلك النهي عن تعاطي السيف مسلولاً ، وما يمكن أن يقاس على ذلك من إشهار السلاح ـ دون ضرورة ـ في وجوه الآخرين لما في ذلك من ترويع وفتنة . وحتى في أوقات الحرب فإن المسلم منهي عن الإفساد في الأرض التي يمتلكها غير المسلمين كإفساد الزرع أو قتل الحيوانات إلا لضرورة حربية وهذه الضرورة لا يقدرها المقاتل العادي ، بل يقدرها القائد لأنها مسئولية .

والخلاصة :

أن المنهيات على المستوى الإنساني تشمل ما سبق وتشمل إلى جانبه كثيراً مما ورد النهي عنه وصنفناه تحت بند المستوى المجتمعي ، فمثلاً نهي المسلم عن التعامل بالربا يشمل تعامله مع المسلم ومع غير المسلم . ونهيه عن النظر إلى المرأة الأجنبية يشمل المسلمة وغير المسلمة . ومن هنا يتضح أن التربية الإسلامية لا تنظر إلى المسلم كأنه يعيش في مجتمع مغلق ، بل تتسع لتحدد له سلوكياته المقبولة والمرفوضة بوصفه مسلما وفي الوقت نفسه بوصفه عضواً في مجتمع مفتوح .

خامسا : على المستوى الكونى

بل إن النظرة الإسلامية لا تقف عند حدود التعامل مع غير المسلمين من البشر، بل أنها تشمل التعامل مع الكون الواسع جمادات وأحياء ومن هنا أورد الحكيم الترمذى بعض المنهيات التى تخص الكون بمعناه الواسع. فمثلاً :

أ ـ الجمادات :

ورد النهى عن بول الانسان وهو يستقبل القبلة لأن القبلة مكان عظمة الله وأمر بتعظيمه فوجب على المسلم الاستدارة بعيداً عن اتجاه القبلة مالم يكن داخل مكان مخصص لقضاء الحاجة ولا حيلة له فى تغيير اتجاهه فيه.

ومن ذلك النهى عن بيع الأصنام لأن الاصنام لاينتفع بها فبيعها عبث إن لم يكن فيه حرمة.

ومن ذلك البول فى الإناء الذى قد ينتفع به، فقد ورد النهى عن ذلك لما فيه من إساءة إلى الإناء ـ وهو جماد ـ وإساءة لمن قد يستخدمه دون أن يدرى أنه أصبح محلا للنجاسة. وفى هذه التعاليم يظهر حرص التربية الإسلامية على أن يتخلق الإنسان بأسمى آيات النظافة والطهارة.

ب ـ الحيوانات :

أما فى مجال الحيوانات فهناك أمور كثيرة منهى عنها أورد الحكيم الترمذى بعضها كالنهى عن حد شفرة السكين، والحيوان ينظر إليها لما فى ذلك من تهديد له وتعذيب نفسى وإنها لقمة الرحمة الرأفة أن تراعى الشريعة الإسلامية مشاعر الحيوان النفسية برغم أن الله قد أحله وسخره للإنسان. وكذلك النهى عن استخدام الحيوانات فى اللعب كسباق الحمام ومصارعة الديوك ومصارعة الثيران فقد أورد الحكيم النهى عن نماذج من هذا اللعب غير المشروع الذى يتسلى فيه الإنسان ويلهو على حساب الحيوانات التى لم تخلق لهذا العبث.

كما أورد النهى عن بيع القردة والخنازير لتحريم لحم الخنزير وانعدام الفائدة من القردة لأنها من الحيوانات التى لا تملك ومالا يملك فلا ثمن له. كما أورد النهى عن أكل الحيوانات الجلالة (الجوالة التى قد تأكل من فضلات الإنسان) حتى تحبس ويقدم لها أكل نظيف قبل ذبحها. كما أورد النهى عن الانتفاع بعظام الفيل لأنه من الحيوانات ذوات الأنياب وكلها محرمة شرعا. كما أورد النهى عن قتل بعض الحشرات والطيور التى

قد تظهر منفعتها كالنحل والهدهد أو التي ذكرها القرآن في معرض التكريم كالنمل .

كما أورد النهى عن احراق شيء من الحيوان بالنار لأن فيه مخالفة للنهى عن التعذيب بالنار . وأورد النهى عن الذبح بغير السكين كالذبح بالسن أو الظفر لأن فيه تعذيبا للحيوان .

كما أورد النهى عن العبث بالنطف مثل تسليط الحمير على الخيل لانتاج البغال وما قد يشبهه من هذا القبيل .

والخلاصة أن :

ما أورده الحكيم الترمذى فى المستوى الكونى من المنهيات يمثل سلوكيات ينبغى على الإنسان اجتنابها مثل :

- إهانة الأماكن المقدسة .
- إساءة استخدام الأوانى وما إليها مما ينتفع به .
- التجارة فى المحرمات .
- إساءة معاملة الحيوانات .
- تعذيب الحيوانات بأى صورة : جسدية أو نفسية .
- قتل الحشرات والطيور النافعة .
- العبث بالسلالات .

نتائج البحث

١ ـ الحكيم الترمذى مفكر وفيلسوف إسلامى صوفى له عشرات المؤلفات التى لم تنشر بعد ويستحق مزيداً من الدراسات.

٢ ـ استطاع الباحث التوصل إلى رؤية الحكيم الترمذى للعلم والعلماء من خلال مؤلفاته المتاحة وتتلخص فى أنه :

أ ـ قسم العلم تقسيماً ثنائيا مرة وتقسيما ثلاثيا مرة أخرى.

ب ـ أنه يهتم فى تقسيمه للعلوم بالعلوم الدينية ولم يشر إلى علوم الدنيا مخالفاً بذلك من تبعوه من علماء كالغزالى (ت٥٠٥هـ) وغيره ممن كان تقسيمهم للعلوم شاملاً.

جـ ـ جاء تقسيمه للعلماء مبنيا على تقسيمه للعلوم وبنى تقسيمه للعلماء على حديث نبوى شريف.

٣ ـ اهتم الحكيم الترمذى بالتربية الأخلاقية وذكر ثلاثة مستويات لهذه التربية هى :

أ ـ جهاد النفس(رياضة النفس).

ب ـ التوبة.

جـ ـ الزهد فى الدنيا.

وقد اتضح أن هذه المراحل اكتسبها الحكيم من تجربته الروحية الخاصة.

٤ ـ حول الطبيعة البشرية يرى الترمذى أنها مزيج من الخير والشر كما أن الإنسان مسير فى بعض الأمور ومخير فى بعضها الآخر وبالتالى فعليه أن يسعى بقدر طاقته فالحكيم بذلك يتبنى النظرة الإسلامية المتكاملة للطبيعة البشرية ولا يتطرف كبعض الصوفية الذين يغلون من قيمة الروح ويضعفون من أثر الحرية.

٥ ـ للحكيم الترمذى آراء واجتهادات خاصة به حول العقل والروح وقد انعكست هذه الآراء على أفكار الحكيم فى تربية النفس ومحاولته سبر أغوارها وتحليل قواها وأفعالها.

٦ ـ تتمثل مصادر المعرفة عند الحكيم الترمذى فى : القلب(المعرفة الشرعية) يليه الروح فالنفس والمعرفة العقلية يقصد بها استيعاب الحقائق الشرعية من الكتاب والسنة.

٧ — يعد كتاب " المنهيات " للحكيم الترمذى مصدراً نادراً من مصادر الفكر التربوى الإسلامى وقد قام الباحث بدراسة تحليلية لمضمونه حيث قام بحصر السلوكيات التى ينبغى على الإنسان اجتنابها حتى يكون سلوكه مقبولاً اجتماعيا • وصنفها الباحث فى المحاور التالية :

أ — على المستوى الفردى •

ب — على المستوى الأسرى •

جـ — على المستوى الإجتماعى •

د — على المستوى الإنسانى •

هـ — على المستوى الكونى •

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

١ ـ ابن الجوزى (ت٥٩٧هـ) (أبو الفرج عبد الرحمن) ،صفة الصفوة ،الجزء الرابع ط حيدر أباد ـ الهند ، ١٣٥٥هـ.

٢ ـ ابن كثير (ت٧٤٩هـ) (أبو الفداء اسماعيل) تفسير القرآن العظيم ـ جـ٣ القاهرة دار الحديث ، ١٩٨٨م.

٣ ـ الترمذى (ت٣٢٠هـ) (أبو عبد الله الحكيم) علم الأولياء ،تحقيق سامى نصر لطيف ،القاهرة : مكتبة الحرية الحديثة بجامعة عين شمس ، ١٩٨٣م.

٤ ـ ـــــــــــ ،المنهيات ،تحقيق محمد عثمان الخشت ،القاهرة: مكتبة القرآن ، ١٩٨٦م.

٥ ـ الذهبى (ت٧٤٨هـ) تذكرة الحفاظ ،الجزء الثانى ،ط٢ ـ حيدر أباد ١٣٣٣هـ.

٦ ـ السبكى (ت٧٧٩هـ) (تاج الدين) طبقات الشافعية ،جـ٢ ،القاهرة : مكتبة البابى الحلبى ،د.ت.

٧ ـ السلمى (ت٤١٢هـ) (أبو عبد الرحمن) ،طبقات الصوفية ،تحقيق نور الدين شريبة ،القاهرة : دار الكتاب العربى ، ١٩٥٣م.

٨ ـ طاش كبرى زادة ،مفتاح السعادة ،جـ٢ ـ طبعة حيدر أباد ، ١٣٢٨هـ.

٩ ـ العسقلانى (ت٨٥٢هـ) (ابن حجر) ،لسان الميزان ،جـ٥ ،طبعة حيدر أباد ، ١٣٢٩هـ.

١٠ ـ ـــــــــــ ،تهذيب التهذيب ،بيروت: دار الفكر ، ١٩٨٤م ، (أجزاء مختلفة منها الجزءان ١٣ ، ١٤ فهارس).

١١ ـ الغزالى (ت٥٠٥هـ) (أبو حامد) ،إحياء علوم الدين ،بيروت : دار المعرفة د.ت.

ثانياً : المراجع :

١٢ ـ إبراهيم عصمت مطاوع (دكتور) ،أصول التربية. القاهرة : دار المعارف، ١٩٨٠.

١٣ـ أبو الوفا التفتازانى (دكتور) ،مدخل إلى التصوف. نقلا عن : سعيد إسماعيل على (دكتور) ،بحوث فى التربية الإسلامية ،القاهرة : مركز التنمية البشرية والمعلومات ، ١٩٨٧.

١٤ـ خير الدين الزركلى ،الأعلام ،جـ٧ ،بيروت: دار القلم ،الطبعة الثانية.

١٥ـ سعيد اسماعيل على (دكتور) ،بحوث فى التربية الإسلامية. القاهرة : مركز التنمية البشرية والمعلومات ، ١٩٨٧.

١٦ـ عبد الحليم محمود (شيخ الأزهر) أبو الحسن الشاذلى ،نقلاً عن المرجع السابق.

١٧ـ عبد الفتاح بركة ،الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية ،القاهرة : مجمع البحوث الإسلامية ، ١٩٧١.

١٨ـ عبد المحسن الحسينى (دكتور) ،المعرفة عند الحكيم الترمذى.

١٩ـ محمد إبراهيم الجيوشى (دكتور) ،الحكيم الترمذى : دراسة لاثارة وأفكاره ،القاهرة دار النهضة العربية ، ١٩٨٠.

٢٠ـ محمد الهادى عفيفى (دكتور) ،فى أصول التربية ،القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٤.

٢١ـ محمد نبيل نوفل (دكتور) دراسات فى الفكر التربوى المعاصر.

٢٢ـ وجيه أحمد عبد الله ، "الحكيم الترمذى واتجاهاته الذوقية" رسالة دكتوراه قدمت إلى كلية الآداب بسوهاج ـ جامعة أسيوط ، ١٩٨٨م.

٢٣ـ ذكرت هذا التاريخ دائرة المعارف الإسلامية ولكن ثبت من كلام الحكيم الترمذى نفسه أنه لقى بعض العلماء بعد هذا التاريخ مما يجعل هذا التحديد غير دقيق كما ذهب إلى ذلك كثير من دارسى الحكيم.

راجع : دائرة المعارف الإسلامية ـ طبعة دار الشعب بالقاهرة ١٩٦٩ ،مجلد ٩ (الطبعة الثانية) ص ٩٥.

الفهرست

الموضوع	الصفحة

رقم الايداع : ١٦٦٨ / ١٩٩٢م ٠

I. S.B.N. الترقيم الدولى

977/00/2817/7